ياسمين العيساوي

بعضٌ مني وكلك

علاقات بين أمواج الوحدة وشواطئ الونس

دار دوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بعضٌ مني.. وكُلُّك

ياسمين العيساوي

الإهداء..

أهدي هذا الكتاب لكل شخص مقبل على الحياة بروح طيبة، يبحث عن حكمتها ويتفادى شرها..

وأشكر كل العابرين في حياتي.. شكرًا لأنكم أعطيتموني من خبرة الحياة، وعلمتموني الفرق بين الخطأ والصواب، وجعلتموني قوية لا تهزني ريح الإساءة، ومنحتموني ثقة الوقوف، وتكرار المحاولات، والاستمرار بحثًا عن

الأصلح والأجمل دائمًا.

وشكرًا لكل من رفض العبور السريع، واختار أن يبقى بجانبي، وينضم إلي في فترات الحياة المختلفة، أنتم قلّة لكنكم الأهم والأصدق والأقرب إلى القلب..

☆ ☆ ☆

تقديم..

هنا ستدرك أنك لست وحيدًا، فهناك أشخاص يشاركونك فيما تعاني منه، يهيمون في دوامة الحياة ويواجهون الكثير من المواقف، والكل يسعى خلف الرضى والسعادة، وقد يتوه لسنوات بحثًا عنهما، وقد يغفل وجودهما حوله أحيانًا..

هنا قد تجد بعضًا من الإشارات التي قد تلهمك، أو تهبك القوة في لحظة ضعف، أو تعطيك رسالة قدرية، لتبدأ من جديد أو تستمر بعزم أكبر، فتجارب الناس ملهمة مهما كانت بسيطة، والنضج والحكمة قد تكتسبهما من تجاربك، ومن تجارب الآخرين.

هنا لا أتحدث باسمك.. أنا فقط قد أترجم مشاعرك، وقد أعبر بلسانك عما حاولت إيصاله مرارًا، ولكنك لم تنجح في ذلك، سأسلط الضوء على تلك المشاعر الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة أحيانًا، وقد نغفلها في زحمة الحياة وأعبائها، وتلك التخبطات التي تصيبنا وقد لا نجد لها أي مسمًى واضحًا نضعه جانبها.

لطالما آمنت بأن الأشخاص تختلف ملكاتهم، ومواهبهم ويتقنون مجالات دون الأخرى، ولكني على يقين أنهم يحملون مشاعر مشتركة، ويبحثون أحيانًا عمن يترجمها لهم بكلمات، لتخرج من وجدانهم إلى الورق، ويشاركونها مع بعض كرسائل مقصودة وغير مقصودة أحيانًا، لهذا فواجب كل شخص يملك ملكة الكتابة والسرد ألا يبخل بما لديه؛ ليوصل رسائل الناس إلى الناس.

مهمة التعبير عما يجول بخاطر البشر ليست سهلة، وتضعك في دوامة من الحيرة والتساؤلات، والمسئولية التي تقضي أن تكون صريحًا، واضحًا شفافًا، غير مبالٍ بالعواقب أحيانًا. لأنك وببساطة قررت أن تقول ما يخفونه أو يتهامسون به سرًّا ليبقوه خلف جدار مشاعرهم، ولا يعلمون أن عرضه وتسليط الضوء عليه هو السبيل الوحيد لفك ألغازه، وإيجاد الحلول..

قد تجد قصتك بين هذه السطور، أو حتى مشاعرك التي أخفيتها أو ربما عبرت عنها، وترغب في مشاركتها مع العالم.. فهنا لا أقدم حلًا للمشاكل، بل أطرحها من وجهة نظر قائمة على التجربة، لأني مؤمنة بأن تلك الأخيرة هي الدليل الوحيد على صحة أي نظرية أو خطئها...

كل شخصية في هذا الكتاب مقتبسة من الواقع، فهنا بعض مني، وكثير منك ومن أشخاص حولك، مرآة الواقع، وانعكاس الحقيقة داخل مجتمعاتنا..

ومن خلال هذا الكتاب أردت أن أشكر الله على نعمة التجارب، وأشكر الحياة على كل ما قدمته لي من مواقف، سواء كانت سيئة أو جميلة، لأن كل موقف أكتسب منه خبرة، وكل خبرة تمنحني حكمة، حتى أصبحت قادرة على مواجهة الأمور بعقلي، وأستعين بمشاعري عندما يتطلب الأمر ذلك.

كما أردت أن أشكر أسرتي التي دعمتني بحبها دائمًا، وعائلتي الصغيرة التي نجحت في بناء شخصيتي، ومنحتني الثقة الكاملة لأسلك مسارات أحبها، وأثبت ذاتي فيما أحبه دون تردد، والشكر موصول لدار «دَوِّنُ للنشر»

التي دعمتني وشجعتني وحفزتني رغم ترددي المستمر، أشكرهم على تلك الثقة.

هنا بعض مني.. وكلك!

ياسمين العيساوي

☆ ☆ ☆

«لعلَّه خير».. فكل شيء يحدُث لسبب

كل شيء يحدث لسبب.. وضائعون نحن في متاهة الأسباب، نبحث عن الحكمة وراء ما أصابنا وسيُصيبنا، نرغب في تصديق ذلك الوعد «لعلَّه خير»، أين الخير في مشاكل تتوالى وصِعاب تأبى أن تنتهي؟

نُعانِد الظروف، ونعيد الأخطاء ونحصل على نفس النتائج، لنعيش دوامة الأحاسيس المُكرَّرة التي فقدت هيبتها من فرط الإعادة. فنحن في حاجة إلى كشف خط السير الصحيح الذي سيبعدنا عن الألم قدر الإمكان، نحتاج إلى معرفة الحكمة وراء ما نواجهه، نحتاج أن نتجرد من مشاعرنا قليلًا ونتعامل مع الواقع بعقل.

أنا على يقين تام أن كل ما يحدث في حياتنا لسبب فعلًا، وأؤمن ب«قانون السبب والنتيجة» ([1]) الذي يحمل الكثير من الدلائل الوجودية التي تؤكد صحته، وأي شخص قد يصل إلى النتيجة الخاصة به، إذا استغرق القليل من الوقت في التفكير ووضع أمام عينيه أبرز أحداث حياته، سيجدها مترابطة متسلسلة، كل واحدة منها مهدت للأخرى، وكل حدث كبير سبقته اختبارات، جهزت نفسيته وظروفه لما بعده.

إنها الحياة..

مجموعة من التفاصيل والأحداث القدرية المترابطة، قد تجبرك أحيانًا على تحمل ما لا طاقة لك به، لسبب قد تكتشفه فيما بعد حتى لو جاء متأخرًا، بل هناك من يرى أن أحداث الكون برمتها تخطيط إلهي منسوج بدقة متناهية، والصدفة وهْمٌ اختاره البعض كي يختبئ خوفًا من الدهشة أمام اللحظات المفاجئة التي يعجز عن تفسيرها، أو العقل البشري غير قادر على استيعابها بالشكل الصحيح ليومنا هذا.

قصتك فعلًا أنت من تنسج خيوطها، بقراراتك وخططك تمهد الطريق للأحداث الفارقة في حياتك، والمطبات ثم العثرات تأتي لسبب، يُقوِّمك من أجل الوصول إلى الهدف.. سواء هدف سعيت له أو حلمت به، أو هدف قدري اختارته لك ظروف الحياة قد يكون أجمل مما توقعت.

نمر جميعنا بتلك الفترة التي نفقد خلالها الإيمان بأي شيء وكل شيء، عندما تشتد المواقف فنرى أن الكون جمع قوته ليتآمر علينا، فتتوالى الأحداث السلبية، لدرجة أننا نصبح مؤمنين بمبدأ «النحس»، أو حتى بتلك الكلمات الغريبة التي نسمعها من الفلكيين، ويصعب علينا استيعابها، كدخول زحل في دائرة القمر، وتعامد الشمس على كوكب المريخ، ومجموعة مصطلحات مهما حاولت وجود وجه الشبه بينها وبين الشؤم الذي يتبع خطواتك في تلك الأيام لن تستوعب.. ولكنك تحاول الفهم.. ماذا يحصل؟

في أشد حالات النحاسة أستعين بأمي غالبًا – رغم أنها ليس لها يد فيما أكون عليه - لأشركها هواجسي المليئة بالسلبية، شكوكي في تآمر الكون ضدي، بحثي الدائم عن السبب الظاهر أو الباطن وراء سوء الحظ الذي قرر أن يصاحبني دون رضاي، أو يكتب معي عقد شراكة لا أرباح واضحة من ورائه.

إلا أن الأمهات على موعد مع الشقاء الدائم، مجبرات على تحمل ألم أبنائهن كجزء لا يتجزأ

منهن، وكأنهن يوقعن عقد تحمل مسئولية الخيبات والانكسارات التي تنتظر كل مولود يساهمن في وجوده في هذه الحياة، وتبدأ =

معاناتهن مع أول صرخة لنا في الحياة، لتتوالى الصرخات وتكبر وتصبح صرخات ناضجة فيما بعد، لكنها لا تخلو من الألم.. الأمومة سلسلة معاناة تبدأ ولا تعرف نهاية.

ولأني على إيمان تام بأن قصص وحكم الأمهات والجدات أهم من كل الكتب والدراسات التي يعمل عليها الباحثون والمختصون، فخبرة الحياة أهم من مليون قاعدة علمية قد تحرص على دراستها بالأرقام والحسابات.

التجربة هي الوحيدة الكفيلة بتعليمك، وكما يقول أحد الأمثال المغربية القديمة «من فاتك بليلة.. فاتك بحيلة»، بما معناه أن كل شخص أكبر منك آخذ من الحياة الحيلة والخبرة.. فلا تجادل من فاتك بيوم في هذا العالم، التجارب قد تكون صعبة وقاسية وأحيانًا مؤلمة، ولكنها دروس مجانية قد تجنيها ممن عايشها، بعيدًا عن نظريات تخيَّلها عالِم، وجربها على زرافة وقرد ليُثبت صحتها.

وأمي تحرص دائمًا على أن تحك لي قصة «لعلّه خير»، كلما اشتدت نوبات غضبي تجاه ما أصفه ب. «أيام النحس العظيمة»، وهي مجموعة من الأحداث المتتالية التي تؤكد أن «طريقك مسدود مسدود يا ولدي»، وتقول أحداث القصة:

«كان عند أحد الملوك وزير يتمتَّع بالحكمة، ويثق أنَّ كل ما يقدِّره الله للإنسان هو خير، وفي يوم من الأيام خرج الملك برفقة الوزير للصيد، وأثناء مسيرهما وقع الملك في إحدى الحفر العميقة، ثمَّ نزف من يده دم كثير، فذهب إلى الطبيب وأمر بقطع إصبعه حتَّى لا يتضرر باقي الجسم بسببه، فغضب الملك غضبًا شديدًا، وقال له الوزير (لعلَّه خير) ، فسأل الملك الوزير «وما الخير في ذلك؟! أتتمنى أن ينقطع أصبعي؟!). ومن شدة الغضب أمر حرَّاسه بالقبض على الوزير وحبسه، فقال الوزير (لعلَّه خير)، وقضى الوزير فترة طويلة داخل الحبس.

وفي يوم من الأيام خرج الملك للصيد مصطحبًا معه حرَّاسه، فوقع في يد جماعة من الأشخاص الذين يعبدون الأصنام، وأخذوه ليقدموه قربانًا، وعندما عرضوا الملك على قائدهم وجد أصبعه مقطوعًا، فأمر بتركه لأنَّ القربان يجب أن يكون صحيحًا بغير علَّة، ثمَّ عاد الملك إلى القصر مبتهجًا لنجاته من الموت بأعجوبة، وطلب من الحرَّاس أن يحضروا الوزير إليه، وروى له الملك ما حصل معه، واعتذر منه عمَّا بدر منه، ثمَّ سأله عن سبب قوله (لعلَّه خير) عندما أمر الحرَّاس بأن يسجنوه، فأخبره الوزير أنَّه لو لم يحبسه لكان سيصحبه معه إلى الصيد كما يفعل عادة، وسيكون قربانًا للأصنام بدلًا منه، وأخبره الوزير أنَّ الله عندما يأخذ من الإنسان شيئًا فإنَّما يكون ليمتحنه ولخير يجهله».

لا أعلم مدى صحة القصة التي تحكيها أمي باستمرار، ولكن مبدأ «لعله خير» قابل للنقاش عمومًا، فأحيانًا في لحظة تفكير قد تسترجع أحداثًا مرت بحياتك، وكانت آنذاك بمثابة الكارثة التي أحبطتك، ولكن مع الوقت تكتشف أنها كانت سببًا رئيسيًّا في خير قد جمعك به القدر فيما بعد، وفعلًا كانت خير مُتخفٍّ في هيئة ابتلاء، أو اختبار منحك الكثير من القوة، فما الحياة إلا مجموعة من الدروس.. ولكن هل فعلًا نتعلم منها؟!

نحن من نقع في الخطأ مرتين وثلاثة وأربعة، الغريب أنه نفس الخطأ، قُمنا فيه بنفس التصرف،

بتفاصيله الغبية والساذجة، على أمل أن تكون النتائج أفضل، مع أن التفكير العلمي: «إن يقول نتيجة أي معادلة حسابية دقيقة هي نفسها لن تتغير إذا لم نغير الأرقام»، والتفكير المبني على حكمة من سبقنا يقول: «لا يُلدغ المرء من الجحر مرتين»، ونحن نُلدَغ مرات، ونتوجه للجحر نفسه لكي نداعب الأفعى من جديد على أمل أن تكون قد تخلَّت عن عادتها، وأصبحت أكثر لطفًا، إلا أن الغدر فطرة سيئة تميز كل الأفاعي ولن تستغني عنها.

لن ألقي اللوم على مكرري الأخطاء لأني منهم، وكما أتعامل مع نفسي برفق أتعامل معهم، كرروا أخطاءكم، ولكن ابحثوا عن الحكمة فيما تقومون به، ابحثوا عن السبب، لماذا تتكرر مواقفنا؟ لماذا تتكرر أخطاءنا؟ ما الرسالة التي يحاول القدر إيصالها لنا مرة تلو الأخرى، ولكننا إلى الآن لم نستوعبها.. نفس الدروس على شكل أشخاص أحيانًا، وأحيانًا أخرى على شكل مواقف، نتعامل معها بنفس المبدأ، دون أي بذل جهد للتجديد.

قد يقول البعض إن تعاملنا مع الأشخاص والمواقف هو نتاج لطباعنا أو تربيتنا وظروف نشأتنا، كلها احتمالات صحيحة، لكن التجارب في الحياة دورها الأساسي إعادة تأهيل أفكارنا، واكتساب خبرة نطور بها ما نشأنا عليه،

الإنسان يشبه الأجهزة والبرامج التي تحتاج إلى تحديث من فترة إلى أخرى.

كلنا في حاجة إلى تحديث، وهذا الأخير يحتاج منا فقط لحظات مع النفس، لحظة تأمل فيما يحدث من حولي، ومحاولة البحث عن الرسالة التي عجزت عن فهمها واستيعابها حتى الآن، وضع الأحداث المفصلية في حياتي وربطها مع بعض (فلولا تعطل سيارتكِ في الطريق العام ما كنتِ لتتعرفي على شريك حياتك)، هكذا تُدار الأمور من حولنا، بسبب ومن أجل سبب.

وتحديث حالتنا يحتاج إلى البحث عن الأسباب، والتأمل في كمية الأخطاء التي نقترفها بنفس الطريقة، وهي تشبه بعضها لحد كبير، هذه الأخطاء الذي نكررها هي العقبة التي نقف عندها ونعجز عن تخطيها، وسنستمر في تكرار الخطأ، وسنحزن وننكسر ونتعب، كل مرة أقل من التي سبقتها، إلى أن نستوعب الرسالة، ونتعامل معها بالشكل الصحيح والمختلف. الوضع شبيه جدًّا بلعبة المتاهة، ولكن دائمًا هناك نهاية، وهناك حلول عظيمة، سنصل إليها حتى وإن تأخرنا قليلًا.

إذًا كل ما يحدث لسبب.. ودائمًا «لعله خير».

أجل ماذا عن الوحدة؟

ما الرسالة القدرية التي يمكن أن يحملها لك العيش وحيدًا دون ونس؟ كل ما تقوم به خلال يومك إلى جانب عملك هو البحث عن جزئك المفقود.. ما الحكمة؟

☆ ☆ ☆

شبح الوحدة ليس مؤهلًا ليختار شريكنا

نعيش في مجتمعات لا تعترف بالوحيدين، فالأسئلة التي تلاحقك دائمًا: من أين أنت؟ ما قبيلتك؟ من أهلك؟ من أصدقاؤك؟ هل أنت متزوج؟.. كلها أسئلة متعلقة بالآخرين الذين قد يكون ارتباط اسمك بهم لا يعني لك شيئًا.

أجل ماذا عني؟ اسألني عما علمتني الحياة في وحدتي، فخبرتي أكبر ممن يتقاسمون أحداث يومهم مع شركاء.

فأنا ذلك الوحيد الذي قد يكون محاطًا بكثيرين، ولكنه يقضي يومه يبحث عن جزئه المفقود، يتوسل وجوه الغرباء لعله يجد فيهم قريبًا، يحاول إشراك هذا وذاك فيما يقوم به، آملًا في كلمة تشعره بالونس. فالوحدة سامة قد تجعلك ترى في الغريب قريبًا، وفي العابر حبيب، فتصدق ما يقال لك وما يُحكى. ودائمًا على أمل أنك ستجد الشخص الصحيح في الوقت المناسب، وتجهل أن الابتسامات من حولك قد لا تكون دائمًا حقيقية، فالذئب غالبًا ما يبتسم قبل أن ينقض على فريسته.

كثيرون لا يعرفون ما معنى أن تكون وحيدًا، بل يرون في الأمر متعة من نوع مختلف، وقد تسمع أشخاصًا يقولون: «أتمنى أن أكون في جزيرة بمفردي بعيدًا عن الناس، أستمتع بالأجواء، وقد أعيش على هذا الوضع سنة أو أكثر دون ملل..».

صدقني أنك لن تكمل حتى أسبوعًا على هذا الحال، وستبدأ بالبحث عن ونس، حتى وإن اختلقته من العدم بشكل أو بآخر، مثلما فعل توم هانكس في فيلم Cast Away-2000 ([2])، من شدة الوحدة التي حاصرته في جزيرة معزولة قرر أن يختلق صديقًا، فصنعه من كرة وبنى معه علاقة وبادله الأحاديث، لدرجة أن المشاهد ذرف الدموع عندما فقده في البحر. ففي فقدان الونس أقسى أنواع الألم، حتى لو كان ونسًا صنعته في مخيلتك.

وصنع الونس من العدم أقسى وأخطر مراحل الوحدة. إنها المرحلة التي قد تجعلك ترضى بأنصاف الحلول.. المرحلة التي تبحث خلالها عن حل أزمة دون التركيز في الطريقة السليمة. وقد تندفع فتعاشر من لا يستحق العشرة، وتثق بمن لا يستحق الثقة، فتهب مشاعرك لعابري السبيل، والباحثين عن المتعة العابرة. وقد تلتقي بأولئك المتربصين الذي يهربون من صخب الحياة بحثًا عن الوحيدين، ليعبروا في حياتهم كالبرق، يحرقون أكثر مما ينبتون.

للأسف أغلب الأشخاص الذين يحاولون القضاء على الوحدة قد يتعرضون لأبشع أنواع الاستغلال العاطفي. ويصبرون على هذا الأخير خوفًا من ذلك الصمت المريب الذي كان يحاصرهم، هدوء الهاتف، ضجر الأوقات، تشابه الأيام، برودة المشاعر.. يصمتون أمام التسلط، وقرب من يبتز مشاعرهم، أو يستهلكها دون وجه حق، لا يعلمون أن هواجس الوحدة التي تسكنهم هي التي تجبرهم على الصمت، فيتحملون خوفًا من قدوم ليالي الشتاء الباردة دون ونس.

وفي حياتنا قصص لا تنتهي لأشخاص قضوا أجمل ما في عمرهم بحثًا عن الونس، أو صبرًا على الونس خوفًا من الوحدة، ولكن الفرق بين الباحث والصابر كبير. فالباحث يعيش مع الأمل دائمًا، مخيلته تؤنسه بأجمل القصص الذي قد يعيشها مستقبلًا، ترسم له أحلامًا قد تجعله

سعيدًا. يبتسم لمشهد رومانسي، يضحك لكلمة غزل عابرة، يحلّق مع ألحان أغنية، يأمل كل يوم في لقاء قد يغير مجرى حياته. فوحدته قد تكون خلاقة قادرة على أن تهبه الأفكار والإلهام وحتى النجاح الذي يسعى له مرارًا. الوحيد يحقق غالبًا الكثير من النجاحات وهو في طريقه إلى إيجاد نصفه الآخر.

أما الصابر على مؤنسه، الذي رضي بأنصاف الحلول هربًا من الوحدة، وتحمَّل ما يكسر مشاعره وكبرياءه خوفًا من العودة إلى الوحدة، فقد تكون حياته أكثر ألمًا. فبعدما وضع نقطة النهاية لأحلامه متسرعًا، وأغلق الباب أمام مشاعره متأملًا، انهارت آماله على جدار الواقع. أصبح تعيسًا بلقب مرتبط، غريبًا رغم أنه مع شريك، متألمًا لم يجد السعادة التي كان يحلم بها. كان هدفه ألا يراه المجتمع وحيدًا، فأصبح اليوم تعيسًا، ولا يلمح تعاسته سواه.

أصبح بطلًا في مسرحية يصفق كل من يشاهدها على براعته في التمثيل، ولكنه يؤدي دوره متجردًا من أي إحساس.

أحيانًا لو عشت وحيدًا رفقة الأمل قد تكون أكثر حظًّا ممن يعيش مع شريك بدون سعادة. فشبح الوحدة ليس مؤهلًا ليختار شريكنا، ولسنا مجبرين على الخضوع لضغوطه. ولي في قصص البحث عن ونس حكاية، قصة مريم التي كان قدرها يحتم عليها الوحدة لمدة طويلة، ولم يجد مجتمعنا لها لقب إلا «مسكينة». وكنت أستغرب قدرتها على التحمل، وكيف كانت تبتسم لظروفها ولمن يشفق عليها، حتى إني كنت أتساءل من أعطاها وعدًا بالسعادة وتأخر في الوفاء به؟

مريم ذات ال ٤٥ عاما حاليًّا، عاشت حياة أقرب من التعاسة لأي شيء آخر. ففي مجتمع يعاقب الشخص على أخطاء غيره، كانت هي ابنة خطيئة، أنجبتها أمها بعد تعرُّضها لاعتداء صمتت عنه حتى موعد ولادتها. وفي مدينة صغيرة لا تعترف بذنب الرجال وتجلد النساء حتى إن كن ضحايا، عاشت مريم ووالدتها شبه منبوذتين. وكبرت مريم وسط عائلات تقنعها بأنها لن تجد شريك حياة يقبل بها، رغم أخلاقها العالية وأدبها، إلا أن اسمها سيبقى مرتبطًا بعار مس العائلة في زمن ما. وكانت تسمع الكثير من هذه الكلمات، إلى أن ترسخ في ذهنها استحالة وجود شريك داخل سجن العادات التي تحاسبها على ذنب لم تقترفه.

وكانت مريم تحاول التأقلم مع الوضع، وترى أنها مكتفية بحب والدتها، فهي الونس التي تملأ حياتها وتغنيها عن كل البشر، فتفاصيل يومهما لا تخلو من لمساتها الحانية. إلى أن جاء اليوم الذي دق بابهما عريس، ولكن هذا الأخير ليس كما ظن البعض؛ أنه يحب مريم لشخصها، ولا يعنيه ما حدث مع والدتها، وفيه من الرجولة ما يجعله سندًا وأمانًا. بل كالعادة صنفها المجتمع ضمن قائمة معينة، ولن يناسبها إلا رجل عاطل عن العمل، يتعاطى المخدرات، وقرر أهله أن يزوجوه «على الله يعقل»، وليحملوا مسئوليته لشخص آخر.

ولأنها تخاف أن تصبح وحيدة يومًا ما، ولأن المجتمع من حولها أقنعها بأن تلك فرصتها اليتيمة والأخيرة، وافقت على الارتباط. لتدخل في دوامة جديدة من الضغوطات، بين إمكانيات مادية شبه منعدمة قد تحرمها أبسط حقوقها، ومعاملة سيئة من طرف عائلة الشريك، وإهانات مستمرة وتقليل من قدرها وشأنها. بالإضافة إلى تعاطي العريس المخدرات بشكل مستمر، مما يجعله يتطاول عليها أحيانًا، ويعتدي عليها أحيانًا أخرى. ورغم كل هذا يجبرها الكل على الصبر، فهي المرأة الضعيفة التي ستبقى وحيدة إن لم ترضَ بهذا الشريك العظيم، وستحرم من الأمومة،

فما عليها إلا الصبر!

طال صبر مريم، إلى أن اتخذت قرارًا صارمًا بأنها لن تستمر في هذا الزواج الذي يسلبها أكثر مما يعطيها، ويهددها أكثر مما يعطيها الأمان. وقد رحب أهل الزوج بطلبها، فعلى حد قولهم «سنجد له عروسًا أجمل وأصغر منك»، ففعلًا المظلومات كُثُر في هذا العالم، من يبحثن على الألقاب الاجتماعية بغض النظر عن حقيقتها وصلاحيتها.

واستمرت حياة مريم ولكن في ظروف أصعب مما كانت تتخيل، خاصة بعدما عصفت بها ريح الوحدة في وقت أبكر مما كانت تتوقع. وتوفت والدتها، وتركتها بئيسة لا حضن يأوي همومها. تُعاني، لا دخل مادي يساعدها، ولا شريك يؤنس وحدتها، ولا أولاد يملئون حياتها. كانت تبحث عن عمل يناسب مؤهلاتها البسيطة، فأحيانًا تساعد في تربية الأولاد، وأحيانًا تخيط أو تطرز الملابس.. لتعود إلى تلك الغرفة الصغيرة التي تسكنها وحيدة، لا أم ولا أب ولا إخوة، ولا شريك.

وكانت مريم بعد وفاة والدتها مطمعًا لنوع آخر من الناس، فالأقارب يرون فيها مساعدة منزلية مناسبة، تحمل أعباءهم وتربي أولادهم وتعيش بلقمتها حسب تعبيرهم. أما عروض الزواج التي تتوصل بها فكلها من رجال تعدت أعمارهم السبعين، ممن يبحثون عن ممرضة تحت مسمى زوجة. لا يكفيها بؤس الوحدة، وألم فراق أعز الناس، بل المجتمع يزيدها من المعاناة بأحكامه، ويمنحها ما فاض عليه، وكأنهم خلقوا ليصنفوا البشر ويوزعوا من الأرزاق، حسب نظرياتهم البالية المبنية على «عُقَدِ نقص»، يعوضونها بالتسلط على من هم أضعف منهم.

مريم كانت ممنوعة من الحلم، وإذا في يوم مثلًا رفضت طلب زواج غير مناسب ولم يعجبها، كانت تسمع نفس العبارات القاسية، «أنت امرأة لا أهل لها ولا عزوة، تتقدمين في العمر وستموتين وحيدة دون ونس»، «ليس من حقك الاختيار، فمن هم مثلك يقبلون بأي كان»، «وحدتك ستجلب لك العار والسمعة السيئة، اقبلي بما يُعرض عليك».. كانت هذه أحكام المجتمع عليها. ولكن يبدو أن مريم كانت تحمل أملًا مدفونًا لا تفصح عنه لأحد، فكونها تتقبل كل ما تسمعه بابتسامة، إلا أن هناك ما يبعث في نفسها طمأنينة لم يكن ليعرفها أحد.

وقد رافقت الوحدة مريم حتى وصلت إلى سن ال٤٢، تعودت على ليالي الشتاء الباردة والقاسية، تحاول أن تختلق من الجيران والأصحاب ونسًا، وتستمتع بأبسط الأمور وأصغرها. وجاء اليوم الذي وافقت على فرصة عمل كمساعدة في إحدى الدول العربية، سافرت وعاشت تجربة قاسية لمدة سنتين، لم تزدها إلا ألمًا. ثم عادت إلى بلدها، وإلى تلك الغرفة الصغيرة التي لازالت تشم فيها رائحة والدتها، ولكن يبدو أن القدر كان منصفًا أكثر مما توقعت، والأمل الضئيل الذي كان بداخلها، أصبح بمثابة إشارة تبشرها بأن الخير قادم لا محالة، كانت تصدق شعورها ولا تفصح عنه لأحد.

كانت مريم قد تعرَّفت في سفرها على صديقة، تزوجت مؤخرًا برجل أجنبي، وتعيش معه حياة كريمة، وتتواصل معها باستمرار للسؤال عنها. في يوم سألتها إذا كانت تقبل بالزواج بأحد أقارب زوجها، وجاء السؤال بمثابة الصدمة لمريم التي لا تتقن أي لغة إلا لغتها الأم، وكيف ستتزوج بشخص لا تتقن لغته، ولا تعرف عنه شيئًا، ولماذا وقع عليها الاختيار هي بالذات؟ أسئلة كثيرة تبادرت إلى ذهنها، ولكن ولأول مرة قررت أن تجازف حتى ولو قليلًا لتعرف ما الذي يحصل في الجزء الآخر من العالم.

وقد كان تواصلْ مريم والعريس المرتقب بمثابة ضرب من الجنون، ولكنه يحمل في طياته رسالة قدرية عظيمة، فقد تعوضك الحياة أحيانًا بطريقة غير متوقعة، بلغة غير لغتك، وبجنسية ليست جنسيتك، ومجتمع بعيد عن مجتمعك. التواصل كان عبارة عن محادثات طويلة على برامج التواصل، بطلها موقع خاص بالترجمة، يستخدمه الطرفان ليتعرفا على بعض. وفي تلك الفترة كانت مريم لا ترغب إلا في ونس، يملأ حياتها، لتكتشف لأول مرة إحساس اهتمام شخص بتفاصيل يومك، أو السؤال المتواصل عن أحوالك، أو التعرف إلى شخصك أنت بعيدًا عن تلك الأحكام المزيفة التي يطلقها البعض نسبة لأشياء لا تعنيك.

اتخذت مريم قرار الزواج دون أدنى معرفة منها بتفاصيل هذا المجتمع الذي ستدخل إليه عروسًا جديدة، ولكنها كانت تقول: «أنا لم أغامر يومًا.. عشت وحيدة أبحث عن ونس، اليوم وجدت شخصًا أعطاني الكلمة الطيبة والاهتمام، لا تعنيني لغته ولا يعنيني أصله أو قبيلته، أو ماذا يملك، يكفيني الثقة التي أخذتها من كلماته، ومستعدة للمغامرة حتى وإن كنت سأفشل». والغريب أن العريس الذي توفت زوجته من مدة، وقرر الارتباط بعد أن أصبح عمره ٤٥ عامًا، انبهر بشخصية مريم.

رجل عشق تلك الإنسانة التي قست عليها الظروف ولكنها ظلت متماسكة، محافظة على مبادئها وتحفظ ما لقنته لها والدتها عن ظهر قلب. فوجد في ظروف حياتها حافزًا، ورأى أنها قادرة على تحمل المسئولية والتفاهم مع أولاده، ووجد فيها طيبة وإحسانًا افتقدهم، فقرر أن يكون لها السند. وكعادته، مجتمعها الذي نبذها من الصغر لم يتأخر في محاولة هدم أحلامها، وهذه المرة رفضوا قرارها، بحجة أنها ابنتهم الذي لن يسمحوا لها أن ترتبط بغريب. ولكنها أعلنت الثورة لأول مرة، وحزمت حقيبتها وتوجهت إلى ديار لا تعرفها، بحثًا عن الونس حتى وإن كان غريبًا.

تعيش مريم اليوم مع أشخاص لا يعرفونها ولكن يحبونها، يحترمون طيبتها ويقدرون يُتمها والحرمان الذي عانته لفترة طويلة. وقد وجدت نصفها الآخر وسندها في تلك البلاد البعيدة، بعد أن جمعهما القدر بشكل أقرب للخيال من الواقع. تلك الوحيدة أصبح لها سند في الحياة، ونس عوضها عن حرمان السنوات التي قضتها وحيدة تنتظر فتح باب المعجزات القدرية. وهي اليوم غير نادمة على صبرها وأملها الذي كانت تخفيه عن عيون الناس وظنونهم، كانت على يقين أن الحياة عادلة مهما قست، وإذا أخذت تعطي ولو بعد حين. لم تستسلم لشبح الوحدة وتتركه يقرر مصيرها بأسرع طريقة ممكنة، وتسلَّحت بالأمل ولم يخذلها.

☆ ☆ ☆

الحكم الأخير.. بيد القدر

«يصبح الإنسان ناضجًا عندما يختلق الأعذار للآخرين، مهما كانت أفعالهم..»، قد تبدو هذه الجملة مثالية جدًّا، ولكنها حقيقية أكثر مما يتصوره أي عقل. وإذا راجعت نفسك قليلًا، ستجد أنك اليوم تقوم بأشياء لم تتوقع قط أنك ستفعلها، بل والأدهى أنك أعبت على من سبقوك لها، وانتقدتهم!

هذا فعلًا ما يحدث معنا جميعًا، نلاحظ كثيرًا، وننتقد دون وعي أحيانًا، بل نرفض باستنكار ما نراه حولنا. دون أدنى وقفة بسيطة مع أنفسنا لنسأل، ماذا لو نحن مكانهم؟ ما ظروفهم يا ترى؟ ما الذي أوصلهم لهذا؟

نسمع تلك الجملة الشهيرة مرارًا: «مهما كانت الظروف.. يجب ألا تفعل هذا»، فعلًا التنظير شيء عظيم، حتى الفلاسفة والعلماء استعانوا به، ولكنهم لم يعتمدوه بدون تجربة، لأن تلك الأخيرة هي سيدة القواعد والحِكم. لا نصائح بدون تجارب لو تفضلتم، لا وشوشة وهمز ولمز على هذا وذاك دون أن تخوض معه معركة التجربة والظروف.

إذا مررت بنفس التجربة بتفاصيلها وظروفها قد تكون مخولًا للنصيحة، وليس للملاحظة. مع أن تعاطي الأشخاص مع واقعهم يختلف من شخص لآخر، إلا أنك قد تفيد أحيانا بناءً على تجربتك أو معاناتك.

إنها الظروف، قد تحاصرك أو تجبرك على القيام بأشياء لم تتوقعها أبدًا. دعك ممن يقولون أنت سيد قراراتك، ومسئول عن اختياراتك، كلها شعارات عظيمة، نرددها لكي نطمئن أنفسنا أحيانًا. ولكن الحقيقة أن هناك ظروفًا قدرية قد تلعب بك وبقراراتك واختياراتك، وكل ما قلته أمام نفسك يومًا، لتشعر نفسك بالقوة والسيطرة على واقعك. ولولا هذا ما كان الناس يرددون دعاء: «اللهم لا تسلط علينا ما لا نقدر عليه»، لأنهم يعلمون علمًا تامًّا أن هناك ظروفًا قد تنتشلك من مثاليتك، لترميك في تجربة من انتقدتهم يومًا.

ولكل شخص وفيٌّ للحِكم، أكيد سمع المثال الشهير الذي يقال بلهجات وطرق مختلفة ولكنه يعني نفس المضمون: «من أعاب على أحد.. لحق به»، بمعنى إذا انتقدت شخصًا فقد تصل لما وصل إليه. والأساطير والقصص التي تحدثت عن هذا الموضوع كثيرة، بلغات ومفاهيم مختلفة، ولكن لها نفس المعنى، بداية من قصص الأطفال والأمير الذي تحول إلى وحش لأنه أعاب على شكل شخص، وصولًا للأحاديث الدينية، وأساطير الفلاسفة، ودراسات علماء الطاقة.

وإذا استعن بما تم تدوينه على مر الزمن، حول هذا الموضوع، فيمكن أن نشير إلى قانون «الكارما» كمثال، وهو مفهوم يرجع إلى الديانتَين: البوذيَّة، والهندوسيَّة، ويُقصَد به القوَّة التي تَنتُج من تصرُّفات الشخص، سواء كانت خيرًا، أو شرًّا وتؤثِّر مُستقبلًا في حياته. أو في تعريف آخر، فهي الطريقة التي تتمُّ من خلالها مُعاقَبة الفرد أو مُكافَأته على أعماله السابقة، السيِّئة بمِثلها والجيِّدة بمِثلها أيضًا. بمعنى أن انتقادك للآخر الذي قد يضره أو يسيئ إليه يمكن أن يعود إليك بنفس الطريقة، وقد تجد نفسك في نفس موقفه الذي دفعه لفعل ذلك، هذا إذا لم يكن عقابك أكثر منه سوءًا.

وبغض النظر عن الظروف حدثني عن تلك القناعات التي كنت تملكها بالأمس، هل لازلت مؤمنًا بها ولم تتغير؟ هل تعلم أن الدراسات العلمية أثبتت أن الأشخاص الذين لا تتغير أفكارهم وقناعاتهم في ظرف ٦ أشهر حتى سنة، يعانون من خلل في الإدراك؟ بمعنى إذا كنت تحتفظ بقناعاتك القديمة، ومتشبثًا بصحتها، فقد وجب الوقت لزيارة الطبيب، فالتطور العقلي والإدراكي أساسي في حياة كل فرد.

ومن الطبيعي إذا تغيرت أفكارك وقناعاتك، ستقوم بذلك الفعل الذي نظرت إليه سابقًا باستغراب، بل من الممكن أنك استغرقت من وقتك الكثير لتتحدث عمن قام به واستنكرته. وإذا بحثت في ذاكرتي عن قصص مشابهة من الواقع لأشخاص تغيرت قناعاتهم، وأصبحوا موضع ملاحظة بعدما كانوا هم من يطلقون الأحكام، فسيتطلب مني الموضوع تأليف ١٠ كتب، ولن أنهي ما بدأته.

أتذكر جيدًا ذلك الرجل الذي كان يضرب أخته لأنها لا ترتدي غطاء الرأس، وبعد ٥ سنوات قابلته على شاطئ البحر مع زوجته وهي ترتدي «مايوه»، يبدو أن قناعة الستر واجب على المرأة قد تغيرت بعد الزواج!

كما أتذكر جيدًا تلك الصديقة التي كانت تعيب على معظم أزواج صديقاتها وأشكالهم، فعريسها كان مميزًا يوم زواجه، فصلعته وكرشه لفتا أنظار كل الحاضرين، يبدو أن قناعة الوسامة قد غيرها الزمن، والواقع غير منصف.

وأتذكر كذلك تلك المرأة التي كانت ترى أن صديقاتها فاشلات في تربية أبنائهن، وتلقي باللوم عليهن. لن أنسى أبدًا كلماتها الجارحة لصديقتها، عندما قالت لها: انت السبب في سلوك ابنك العدواني، فأنت لم تحسني تربيته ولم تعوديه على العقاب من صغره.. وما كان للأم إلا أن انهارت باكية، ملقية اللوم على نفسها، فهي لا حول لها ولا قوة أمام تصرفات ابنها. اليوم صديقتنا تلك تبحث عن متخصصين نفسيين واجتماعيين لمعالجة سلوك ابنها غير المبرر من عدوانية وانطوائية!

ومن تجربة شخصية لن أنساها أبدًا في الثانوية العامة كانت لي زميلة دراسة حالفها الحظ أكثر من أي شيء آخر، ونجحت في الوقت الذي رسبت فيه أنا وزميل كان مستوانا الدراسي أقوى منها. وبعد تقبلنا لموضوع الرسوب بصعوبة أنا وزميلي، قررنا الاستمرار بروح معنوية عالية لنعيد السنة. وكان يومنا يمر بشكل محبط جدًّا، عندما نلتقي بزميلتنا تلك التي لا تدخر مجهودًا لتحسسنا بإنجازها العظيم وفشلنا الكبير. وتردد دائمًا كلمات المواساة المفخخة بالشماتة، مما اضطرنا لتغيير المدرسة في منتصف السنة الدراسية هروبًا من كلماتها التي كانت تدمر يومنا وقتها.

ولحسن الحظ اجتزنا السنة الدراسية بسهولة، وبعد النجاح بامتياز والتقديم لجامعات ومعاهد بمجموع عالٍ قابلنا زميلتنا الناجحة التي كانت متخصصة في استفزاز من حولها. وعلمنا أنها رسبت في سنتها الأولى بمعهدها الذي كان يرفض الراسبين، ويطردهم من أول إخفاق لهم. لتشاء الأقدار أن تتساوى معنا، وتبدأ في البحث عن جامعة تقبلها من جديد، ونُصنَّف نحن أعلى منها بالمجموع الدراسي، وحظوظ القبول.. ولكننا لم نوجه لها أي ألفاظ شماتة، لأن الدرس كان واضحًا أمامنا.

قد أكاد أجزم أن ألسنتنا مسئولة بشكل كبير عن أحداث مستقبلنا، وأن الجزاء الدنيوي للإساءة يأتي قبل أي جزاء في عالم آخر. نحن بتصرفاتنا وكلماتنا نقرر ما الذي سنواجهه. وبعيدًا عن دروس احترام نفسية الآخر، فالإنسان بطبعه أناني يفكر في نفسه قبل الغير، ومن هذا المنطلق يجب أن يعلم أنه يسيئ لنفسه بانتقاد الآخرين. فقد يرسم في خارطة مستقبله الهفوة القادمة، ويخطط لها بلسانه وأفعاله دون أن يقصد.

وأظن أن قصة أمل هي أكبر دليل على قدرية الأحداث، وتغير القناعات، وحكمة الظروف بعيدًا عن المبادئ والنظريات.

ابنة الأربعة والثلاثين عامًا التي وهبت حياتها للنجاح والتحصيل العلمي والدراسي، ومناقشة قضايا المجتمع والدفاع عن المرأة في المحافل المحلية والعالمية، اختارت الاستقرار في دولة عربية خليجية بعد سنوات طويلة من الدراسة في أوروبا.

فوسط مجتمع تحتاج فيه المرأة لمن يتحدث بلسانها في التجمعات، كانت أمل نصيرتهن والقدوة.

كانت ترى أن قضايا المرأة في العالم العربي تحتاج إلى وقفة جدية، تبدأ من مناقشة النصوص الدينية وصولًا إلى العادات والتقاليد. في جعبتها الكثير من الإصدارات التي تقف في وجه استبداد الرجل، خاصة العربي المسلم الذي يأخذ المثْنَى والثلُاث تلبية لرغباته، ضاربًا بعرض الحائط نفسية شريكة حياته التي يدمرها عندما تصبح رقمًا بين أربعة أحيانًا.

كانت أمل ترفض الزواج بحجة أن كل من قابلتهم يقيمونها شكليًّا، ويرون فيها أنثى صالحة للإخصاب والتكاثر وإشباع الرغبات. لم تجد من يحرك مشاعرها كإنسانة واعية مثقفة، تنتظر من يغرم بشخصها وعقلها، قبل جسدها، من يرى فيها أمًّا صالحة لأولاده مستقبلًا بعيدًا عن تضاريس جسدها. فهي دائمًا تطرح سؤالًا: لماذا يختار الرجال زوجات فقط لأنهن جميلات؟ هل الجمال قادر على تربية الأبناء مستقبلًا؟.. كما أنها على قناعة تامة بأن كل من يختارها من أجل جمالها لن تدوم علاقته بها طويلًا.

كانت تبحث عن الحب الحقيقي الصادق، من يرى فيها مقومات الحبيبة والزوجة الحقيقية، وأحيانًا تشعر أن جمالها لعنة، خاصة عندما تكثر من حولها كلمات الغزل المرتبطة بالشكل.. نصحوها كثيرًا بأن تتزوج رجلًا أجنبيًّا لأنه قد يلبي حاجتها الفكرية أكثر من غيره. ولكنها كانت وفية لعروبتها، وترى في الرجل العربي فارس الأحلام الذي طالما انتظرته، وتعشق تفاصيله، رجولته وتحمله للمسئولية ووسامته التي لا تخلو من الخشونة، وكلمات غزله المقتبسة من الشعر والنثر العربي الفصيح..

انبهار أمل بالثقافة العربية كان بمثابة الفخ الذي لم تتوقعه، فرغم استماتتها في الدفاع عن المرأة العربية، إلا أنها في نفس الوقت ترى في الرجال العرب السند الذي طالما تمنته. واستقرارها في دولة خليجية جعلها تنبهر بتلك التفاصيل أكثر، كاريزما قوية، وفاء للعادات، إنسانية في التعامل، كلمات لا تخلو من اللباقة، تقدير للمرأة، وغزل فصيح يعتمد على قاموس لا يشبه غيره في أي لغة أخرى.. كانوا يجيدون كسب محبتها لأنها تعشق بأذنها، وهم يجيدون الكلام أكثر من أي شيء آخر.

وتسأل غالبًا إذا كان هؤلاء الرجال يتمتعون بكل هذه المميزات، فمن يظلم النساء اللواتي

يشتكين أزواجهن؟ وهل فعلًا هؤلاء الرجال المميزون يتزوجون مثنى وثلاث؟ أين عاطفة من يتحدث شعرًا ويهيم غزلًا ويهتم بدون انقطاع؟

أسئلة كثيرة كانت تراودها ولكنها فضلت عدم البحث عن الأجوبة، لكي لا ينكسر حلمها، أو الصور الجميلة التي رسمتها في مخيلتها. حتى ساقتها الأقدار أن تهيم حبًّا بشخص امتلك عقلها قبل قلبها، وتلك نقطة الضعف التي كانت تخبئها دائمًا. فهي إنسانة يحركها العقل، ويأسرها من يخطفه قبل القلب. وهذا فعلًا ما حدث.. هامت في حب من شاركها اهتماماتها، ودعم أفكارها التي تنصر المرأة، وكان أول الواقفين في صفوف توقيع إصدارها الجديد، وحرص على حضور ندواتها وجلساتها وصفق لها.

هامت فيه حبًّا؛ لأنه ترفع على إشباع رغباته الجسدية على حساب عقله وعواطفه. كان عاشقًا صادقًا يعطي ولا يحاسب، يتحمل جنونها وعصبيتها، وردات فعلها، ويقدر كل كلماتها ويبدي إعجابه بما تقوله وتفعله قبل ما ترتديه. نجح في امتلاكها، وحقق أصعب معادلة عاطفية، فقد كون في ذاكرتها ومخيلتها أكبر قدر من الذكريات السعيدة، الخالية من الجروح، فيها الكثير من الحب والاحترام والوفاء، مع انعدام تام للإساءة.

كان انسجام أمل مع من تحب ضربًا من الجنون، فقد كانت تراه هدية السماء لها بعد صبر طويل، رأت فيه ما حلمت به طويلًا، ذلك الرجل الذي يقرأ أفكارها قبل أن تتكلم. فبعد معاناة كبيرة مع أشخاص كسروا فيها أكثر مما أجبروا، رأت في فارسها الجديد طوق النجاة من مجتمع خذلها كثيرًا باسم العادات والتقاليد.

وكما تنتهي كل قصص الحب السعيدة، عُرِض على أمل الزواج الذي يحمل معه كل معاني السعادة، إضافة إلى الحب والانسجام حياة مرفهة وآمنة. لكن زوج أمل المثقف والراقي أشغاله كثيرة حول العالم، قد يغيب كثيرًا، وهي بحكم انشغالها بعملها ومؤلفاتها لا تدقق في غيابه، من باب الثقة أحيانًا والانشغال أحيانًا أخرى.

وفي يوم يعد هو الأغرب في حياتها استقبلت مكالمة هاتفية بصوت أنثوي من امرأة أخبرتها أنها زوجة شريك حياتها الأولى، بكلمات باردة قالت لها: «نحن نتشارك نفس الرجل، فقط أحببت أن أخبرك أن شعارات المحاضرات والكتب لا تشبه الواقع دائمًا». صدمة أمل كانت كبيرة جدًّا، وبعد أن انهارت وبكت وأحست بكل أنواع الخديعة واجهت زوجها الذي كانت إجابته باردة وبسيطة، قال: «أنا عشقتك ولم أكذب عليكِ في شعوري تجاهك، ومتشبث ببقائي معك، وإن كنت أخبرتك أني متزوج كنت سترفضين حبي.. هم عائلتي وأنت حبيبتي وستصبحين أم أولادي، ولن يتغير شيء في علاقتنا، فأنت زوجتي ولست حبيبة عابرة».

سكتت أمل بل واختارت أن تعتزل الناس والعالم لفترة، فقط لتفكر في موقفها، وفي مشاعر الزوجة الأولى، ونظرة الناس لها، والانتقادات التي ستطالها، والأفكار الذي كانت تدافع عنها دائمًا.. ولكن كانت الذكريات الجميلة التي جمعتها بمن أحبته تسيطر. توجعت كثيرًا وفكرت كثيرًا، ثم اتخذت قرارًا لا رجعة فيه.

قررت أمل أن تستمر مع زوجها الذي أحبته كما لم تحب من قبل، اختارته لأنه قدم لها الأمان الذي طالما تمنته، قررت أن تكون أنانية لأول مرة في حياتها، وتختار سعادتها وإن كانت على حساب شخص آخر.. اعترفت أن القناعات تتغير بفضل الظروف، وبمواقف لم تكن في

الحسبان، واستمرت في الدفاع عن حقوق المرأة ولكنها دائمًا تنهي محاضراتها بجملة، «أنا أقول وأنتم تقولون، ولكن الحكم الأخير قد يكون للقدر».

☆ ☆ ☆

عندما ينتصر الصمت..

في الصمت حكمة لا يعرفها إلا من صمت مطولًا، من ابتسم في وجه الأكاذيب، وتجاوز الإساءة، ورد على القسوة بلحظات سكوت. ومن يرى في الصمت ضعفًا، لم يجرب حتى الآن لحظات نصر الصامتين، فالكرامة لا تحفظها الكلمات والصوت العالي، والنقاشات الحادة.

كن صامتًا في حضرة الحمقى، من يرفعون صوتهم عاليًا ليثبتوا صحة حماقاتهم.. كن صامتًا في حضرة الكاذبين؛ من يتزينون بأقوال بعيدة عن الأفعال.. كن صامتًا في حضرة الانفعاليين، فكلماتك لن تزيدهم إلا انفعالًا..

اصمت ولكن احذر أن تكون خاضعًا.

الصمت ليس خضوعًا، بل تمعن وحكمة.. قد تصمت لتسمعهم وتحلل ما يقولونه، فتكشف الكلمات حقيقتهم. قد تصمت لتفهم، ويكون ردك مقنعًا وواضحًا. قد تصمت لتثبت قوة تواجدك برد مختصر وبسيط وحكيم. قد تصمت لتجعلهم يفكرون في إساءاتهم ويتراجعون ويعتذرون، فيبقى لك حق اتخاذ القرار.

فعلًا طبيعة الإنسان مركبة ومعقدة، ويصعب علينا أحيانًا التماسك أو عدم الانفعال، خاصة وإذا كان ما يحيط بنا يستفزنا أكثر مما يرضينا. ولكن إذا تأملنا في اللحظات التي كانت ردّات أفعالنا فيها سريعة وبصوت متوتر وعالٍ، سنكتشف مدى الندم الذي لحق بنا بعدها. ولو صمتنا آنذاك كنا سنحل المشكلة بطريقة أكثر ذكاءً وحكمة.

في أحد الأيام استيقظت مذعورة في ساعات الفجر الأولى على صوت جارتي وهي تصرخ، معاتبة زوجها على الخيانة وعلى تأخره ليلًا لأنه كان مع امرأة أخرى، ثم تعال صراخها ونحيبها ليختلط بصوت بكاء أطفالها، وسط حالة مريبة سمعها كل سكان البناية. ثم فتحت باب شقتها ورمت أغراض زوجها خارجًا، وهي تقول، اذهب لها لا تعد إلى البيت مرة أخرى. ووسط كل هذا كان الزوج يقف صامتًا لا يرد ولم يتهور.

فكرت كثيرًا فيما حدث، وتساءلت: كيف يمكن التعامل مع هذا الموقف الصعب بعقلانية أكبر تُشعر الرجل بخطئه وتنتصر المرأة لكرامتها؟ أظن أن الرد بصمت سيكون أكثر حكمة وقسوة مما حصل. فالزوجة كان في يدها حلان أكثر نضوجًا من المهرجان الشعبي الذي أقامته، وشارك فيه كل سكان البناية.

الحل الأول ستختاره في حال كان لها ملجأ وقادرة على الاعتماد على نفسها، فتخرج من البيت وحدها أو رفقة أبنائها، مع رسالة بسيطة: «يبدو أنني لم أعد أكفيك كزوجة.. لهذا قررت الابتعاد»، والحل الثاني بدل أن تطرد زوجها وسط ضجة وصخب، كانت قادرة على أن تجهز له حقيبته وتضعها جنب الباب بكل هدوء وصمت، وينعم أولادها والجيران بنوم هنيء طول الليل.

الحلول الصامتة خاصة مع شريك الحياة تكفينا شر هدم جدار الاحترام، فإذا كان قدرنا الاستمرار سنكون قد تفادينا الكلام الجارح الذي يرافق علاقتنا إلى الأبد. وإذا اخترنا الفراق فسننتقل إلى مرحلة جديدة من حياتنا بدون ندبات كلمات متهورة، تكسر فينا أكثر مما تصلح.

وكإشارة إلى قصة جارتي من جديد، فبعد الخصام الذي هز أرجاء البناية بيومين، عادت الحياة

إلى بيتها بشكل طبيعي. ولم يبقَ من ذلك اليوم إلا فزع في قلب أطفالهم، ووشوشة الجيران ونظرتهم لرجل البيت بأنه زوج خائن، وزوجته التي سامحته على الخيانة وتنازلت عن حقها.

والحقيقة التي حصلت ولم ينتبه لها أحد أن المرأة بعد تهورها وصراخها وتلفظها بكلمات جارحة، والإساءة لزوجها وأبنائها أمام الناس، راجعت نفسها في لحظة هدوء وأحست بذنب الانفعال أمام زوجها الذي اختار الصمت والهدوء وقتها. فاضطرت أن تغفر الزلَّة الكبرى المتمثلة في الخيانة لتغطي على خطأ الانفعال والصراخ، مع أن الخطأين لا يقارنا ببعضهما البعض. إلا أن رد الفعل دمَّر أهمية الفعل، وغطى عليه، وأصبحا شبه متساويين في الغلط. وأنا متأكدة أن المواجهة كانت عبارة عن حوار تضمن هذه الجمل: «أنت خنتني»، و«أنت فضحتي أسرار بيتك أمام الناس وأهنتني».

لهذا فالرد الصامت في وجه من أخطأ بحقنا أكبر إنجاز حكيم يمكن أن نقوم به، إذا صمتَّ يومًا في حضرة شخص متهور يسيء لك بالكلام فغالبًا ستحظى بموقفين محتملين. الاحتمال الأول أن يتوقف الشخص عن الإساءة ويفكر قليلًا أنه أخطأ في حقك وقد يعتذر غالبًا، أو أنك ستستفزه بصمتك ويتمادى أكثر وأكثر ثم يتوقف، ليكتشف أنه نجح في تحطيم صورته أمام عينك، فتسلمه أوراق مغادرته من قلبك وتفتح له الباب دون رجوع.

إذًا احذر أن تكون ممن يتسلمون أوراق مغادرتهم في لحظة تهور كلامية، واختر أن تكون الطرف الصامت الذي يسمع وفي يده الحكم الأخير. فمن يقول إن الشخص يظهر على حقيقته في لحظات الغضب، لم يكن كاذبًا.

استقبل لحظات غضب الآخرين بصمت، واصمت في لحظات غضبك، ولا تعطِ لسانك المتهور فرصة تحديد مسار علاقاتك.

أتذكر صديقتي التي تسلمت ورقة طلاقها في لحظة هدوء وانسجام مع زوجها، وانهارت لأنها لم تتوقع أن يغدر بها. وبعد جلسة هدوء ومصارحة أحاول من خلالها معرفة السبب الذي دفعه لذلك. اكتشفت أن أوقات خلافاتهما كانت تسارع في الإهانة، وتتطاول عليه وعلى عائلته بالكلام، تتفنن في جرحه، فقط بحجة أنها شخص عصبي ولا تتحكم في رد فعلها. فهي تعود لتعتذر، وتستمر بينهما الأمور بشكل جيد. ولكن سكوته أمام إهانتها كان هدوء ما قبل العاصفة التي تدمر إلى الأبد. فقد اتخذ قرار الطلاق في لحظة هدوء وانسجام، بعدما تراكم عليه جرح ردود أفعالها الذي لم ينسه رغم أنه أظهر تجاوزه.

والجدير بالذكر كذلك أن إدارة الحياة بصمت قد تنجح في مختلف الاتجاهات الاجتماعية، وليس فقط العاطفية، في مرة سمعت حوارًا يدور أمامي وكان في غاية الحكمة.

سألت امرأة صديقتها: أرى أبناءك في قمة الهدوء، وطيلة فترة لعبهم مع أبنائي لم أسمع صراخهم بعكس أولادي صوتهم لا ينخفض، وهذا يسبب لي إزعاجًا حتى في البيت..

فردت الصديقة: كيف تعاقبين أبناءك عندما يخطئون؟

قالت المرأة: أحيانًا أضربهم وأحيانًا أصرخ عليهم حسب نوع الخطأ.

فقالت الصديقة: أجل هنا الخلل.. أنت لا تتحكمين في ردود أفعالك وتصرخين أمامهم، فمن الطبيعي سيصرخون هم كذلك.. فأنا أعاقب أبنائي بالصمت، إما أصمت وأمتنع عن الكلام

معهم، أو أخصص لهم عقوبة منزلية بدون أي انفعال.. فيطبقونها بهدوء.

قد يكون الصمت أمام المواقف اليومية أمرًا مقدورًا عليه، يكتسبه الشخص مع الأيام والسنوات، ويتمرن عليه بفضل النضج، فيصبح أكثر اتزانًا مع الوقت، وقادرًا على التحكم في ردود أفعاله أمام كل واقعة تحتاج إلى التأني. ولكن ماذا عن الصمت أمام الأحداث الكبرى الذي بإمكانها أن تغير مسار حياتنا بالكامل؟ أظن أن الشخص القادر على الصمت أمام حدث فات مرحلة النضج ليصل إلى الحكمة. هل تخيلت يومًا أن تعيش على أنقاض سر تخبئه بصمتك؟

أمينة امرأة قد تستحق جائزة نوبل للسلام عن صمتها على حدث استثنائي، بذكاء غير عادي.. فكانت تحكي عن عشرة زوجها التي استمرت ٤٨ عامًا، وعن الحياة التي جمعتهما بحلوها ومرها. فهي امرأة تقليدية لم تأخذ من العِلم الكثير، ولكنها أخذت من خبرة الحياة ما يجعلها أكثر حكمة ودهاء. قد ربت أبناءها بكثير من الصبر، وبعض من التنازلات في الخلافات، فيبدو أن الزوجة عندما تصبح أمًّا تتخذ الحياة الزوجية منحًى آخر، يتصدر فيه غض النظر عن الأخطاء المشهد، وتصبح مصلحة الأبناء في المقدمة دائمًا.

علاقتها بزوجها بدأت تقليدية، تطورت مع العشرة لتصبح عدم قدرة على الاستغناء الذي يصنفه كثيرون تحت بند الحب. قد يكون كذلك فعلًا، فالعلاقات تستمر أحيانًا، لأن الطرفين متعلقين ببعض، وبروتين حياتي معين لا يتجرأن على كسره. ولكن هل العشرة هي الحب؟ سؤال قد يصعب الجواب عنه في سطور مختصرة.. ولكن المؤكد أن العشرة هي مودة، تخلق بداخلنا مسئولية تجاه الطرف الآخر يصعب نكرانها، ليصبح كجزء من جسدك لن تقطعه حتى وإن كان به علَّة.

عندما تنصت لأمينة وهي تتحدث عن زوجها قد تختلط عليك الأمور لوهلة ولن تفرق بين الحديث عنه وعن أبنائها، فهي تحكي بنفس المشاعر المسئولة. تصف طيشه وحماقاته بضحكة ساخرة، وكأنه ذلك الولد الشقي الذي تحاول تقويمه بدل معاقبته، ولا تحس في كلماتها أي نبرة عتب عما كان يقترف في حقها من أخطاء أو إهمال، بل دائمًا تقدم العذر قبل الخطأ. والغريب أنها تحكي بثقة كاملة وتصفه بالقدر المحتوم الذي لم تفكر يومًا حتى في تغييره أو تقويمه، فتقول نحن لا نغير أقدارنا، بل نتكيف معها ونتعود على تحملها.

وقد استمرت الحياة مع «أبو الأولاد»، وهي ترى فيه السند الذي لا تعترض طريقه في أي قرار، وهو يرى فيها أمه الذي يلجأ لها في الشدة قبل الرخاء. ثم أتى الوقت الحاسم الذي تغيب فيه الأفعال والتصرفات، وتبقى الكلمات واسترجاع الذكريات والمصارحة. فبعد أن اشتد على الزوج المرض، وأصبحت أمينة فعلًا الأم الذي ترعى لتهون على من عاشرته لحظاته الأخيرة. كان ينظر إلى عينيها بخجل وتردد، وهو يفكر كيف سيصارحها بذلك الأمر الذي اختار أن يكون سرًّا لمدة طويلة؟

وبعد أن تأكد أنه قد أصبح عاجزًا، يأخذ من شفقة الآخرين وعطفهم أكثر من اهتمامهم، صارح أمينة.

وبدأ كلماته بسؤال: هل ستسامحينني؟

وكعادتها ردت بخضوع واستنكار: «طبعًا سأسامحك فأنت أبو الأولاد، وعشرة العمر».

فقال: أنا متزوج بأخرى، وعندي منها أطفال..

ضحكت أمينة وقالت: أعلم بذلك.. ولن نناقش الأمر الآن فأنت مريض!!

صمت الزوج أمام الرد، ولم يعد ليتحدث عن الأمر حتى فارق الحياة بهدوء، بين يديها التي ظلت تحنو عليه لآخر لحظة. وكان حزنها يكسر الخاطر، فيه من الألم ما قد يدهشك. تذكره بدمعة، وتدعي له في كل صلاة، وتتغنى بخصاله الحميدة، وتردد: «انكسر ظهري بعد أبو الأولاد».

ووسط استغراب من القريب قبل البعيد كان يتكاثر الهمس، هل فعلًا كانت تعلم أنه متزوج بغيرها؟ فكيف صمتت أمام هذا؟ ولماذا لم تخبر أحدًا ولم تواجهه؟ هل فعلًا سامحته؟ أم أنها لن تنسى ما فعله؟

أمينة تقول: «نحن النساء نعلم جيدًا بوجود امرأة أخرى في حياة أزواجنا، فهناك تفاصيل لا تمر مرور الكرام أمامنا.. وأحمق من يظن أن علاقته سرية، فلا أسرار تحت مجهر الزوجات. علمت بأن زوجي مع غيري، عندما أصبح أكثر لطفًا، وباتت ابتسامته تغلب عبوسه، وحنانه المفاجئ النابع عن تأنيب الضمير. إنه عشرة سنوات قد أعرف ما يدور برأسه، قبل أن يكتشفه بنفسه..».

وأكملت حديثها مبتسمة: «علمت أنه تزوج سرًّا فكان ردي صامتًا، لأن مكانتي في بيتي لم تتغير، وكان هو من يعاني ليخفي ما يقوم به. فيكثر من اللطف والهدايا والتعامل الجيد معي ومع أبنائه.. فقط لكي لا نعلم. أصبح شخصًا مميزًا، وهو يداري ما يقوم به. وكنت أحس أن ارتباكه وسرية ما يقوم به فيه احترام لشخصي ولأبنائي وأسرتي. كنت أراه طفلًا بتصرفاته، وأرى أن سلطتي كبيرة وهو خائف من رد فعلي إذا علمت بالموضوع».

وتضيف: «فكرت في مواجهته مرارًا، ولكني توقعت السيناريوهات التي يمكن أن تعرض علي. قد يقرر الانفصال عني، واضطر لتحمل مسئولية الحياة والأبناء وحيدة، وأنا في عمر لم أعد قادرة على فعل هذا. وقد يفرض عليَّ الأمر الواقع، ويقول أنت زوجتي وهي زوجتي، سأقسم عليكما واجبات الحياة بالعدل والتساوي، وهذا رد قد يكون طبيعيًّا. ولكن عندما اخترت الصمت كنت أنا الرقم واحد، حقوقي كاملة بدون تقصير، وهي كانت الضيفة السرية التي يقصدها عندما أستغني عنه».

ما قامت به أمينة استثناء وليس قاعدة، والصمت أمام الأحداث الكبرى يحتاج إلى قدر كبير من الحكمة لا يتحملها أي شخص عادي. ولكن الصمت أمام المواقف العابرة والبسيطة قد يكون مقدورًا عليه بشكل أكبر. وأظن أن الحياة دائمًا كفيلة بأخذ حقك، ستمنحك ما تستحقه غالبًا، خاصة إذا حسبت الأمور بالشكل الصحيح، وتصرفت بذكاء بعيدًا عن التهور في ردود الأفعال.

☆ ☆ ☆

الحب الصامت.. فرحة مخطوفة!

من فضَّل الاهتمام عن الحب كان موجوعًا، ويعاني كثيرًا، ربما كانت تُسحق علاقته، بسبب أخطر داء يدمر أكثر المشاعر صدقًا. تلك العلَّة التي تلتهم الحب دون رحمة، وتشعر كل عاشق بأنه وحيد، يحيى بأمل سماع كلمة...

هل استطعت أن تخمن بعدما استرددت شريط الذكريات الموجعة فجأة؟ هل وجدت أقسى من الصمت تدميرًا للحب؟

عندما تشعر أن فرحتك مخطوفة، ينقصها الكمال، مع أن حساباتك العقلانية تقول: «شريكك شخص رائع، لا ينقصه شيء.. سوى أنه صامت».

تخوض في دوامة الأسئلة، التي تحطمك من الداخل، ولا تجد لها أي أجوبة. قد تبدأ صراعك مع النفس، والتشكيك في تفاصيلك. وقد تراودك كلمات، مثل: ضعيف، لا أقدر، لست جميلًا، لست مميزًا.. وغيرها من السيوف الذي تغرسها بداخلك يوميًّا دون أن تعرف لماذا تفعل هذا بنفسك.

ربما لم تنتبه بعد أن ما ينقصك هو فقط كلمات انتظرتها ولم تجدها، ولا تعلم كذلك أن الإهمال يبدأ من حولنا، ثم يتغلغل إلى داخلنا لينهش ثقتنا بأنفسنا ويدمرها. قد يكون الشريك فعلًا بشروط مكتملة، يستوفي تلك المقاييس التي يرسمها لنا المجتمع، وتتمناها لنا الأسرة. يملك المميزات التي تجعل من حولك ينعتك بالمحظوظ، ولكنهم لا يعلمون أن حظك صامت، لا صوت له، بارد كقطعة جليد متحجرة.

البعض يرى الكلمات الجميلة عبارة عن إضافات يتزين بها الارتباط ليبدو أنيقًا. لا يعلمون أن الكلمة هي أوكسجين العلاقة، نحتاجها من أجل الاستمرار. أما من يقول: «إن الحب أفعال وليس أقوالًا» فهو يملك نصف الحقيقة فقط، ولا يعلم أن كلمات الاهتمام شبيهة جدًّا بالعطر الذي تختاره بعد أن تتأنق. فحبك الخالي من التعبير قد يشبه الشخص الذي اهتم كثيرًا بمظهره، ونسي رائحته، فخسر رهان لفت الأنظار.

الكلمة الجميلة ليست سخافة وغير مرهونة بمكان أو زمان، أو حتى فترة عمرية محددة. فقد خُلِقت التعابير لتجدد العلاقات، وتثبت استمراريتها، وتوطد ما قد يتلاشى مع دوامة الحياة المتعبة. صحيح أن الأفعال والتصرفات تلعب دورًا كبيرًا، ولكن هذا لا يعني أن نغفل مسامع من نحب، فالأذن فعلًا تعشق قبل العين والمشاعر قد تلين وتتجدد بكلمة. تلك الأخيرة قادرة على إنبات زهرة وسط كومة حطام، فلا تشرق الشمس على المشاعر إلا بوصلة غزل صادقة، ترمم الجروح وتُصفي القلوب وتعطي الثقة، وتعلن السلام والمحبة. فات، ولكن هذا لا يعني ان ننسى ي المتعبة سام سجن السكوت قد يكون الشخص الصامِت مُتعَبًا، أو خَجولًا، أو ربما يتألم، لكن الأكيد أن من يعاشر المضريين عن التعبير بالكلمات يعيش في سجن السكوت. وسيبحث عن المفر، وغالبًا ما يكون مفره غير آمن، شائكًا لدرجة الضياع.

سيبحث عن البدائل المغرية التي قد تبدو جميلة من الظاهر ولكن باطنها سام، يلدغ ولا يبتسم. الصمت قد ينهش حياة العشاق كذئب لا يعترف بالعاطفة..

لم تكن تعلم لينا أن زواجها سيصبح يومًا حبيس جدران الصمت بعدما فازت بمحمود زميل الجامعة الذي كانت تحلم به وتتمناه كل صديقاتها. فبالإضافة إلى تفوق محمود الدراسي، فقد كان ابن عائلة مرموقة، وهو «الباكدج الرابح» الذي تجتمع فيه مواصفات فارس الأحلام كاملة، يرضي غرور أي امرأة بتفوقه وأصله ومستواه المادي. كان وسيمًا يركب سيارة فاخرة، أنيقًا وقليل الكلام، مما يعطيه سحر الغموض والجاذبية.

كانت لينا تتوقع أن ذلك الغموض يخفي خلفه رجلًا رومانسيًّا، عذب الكلام.. رغم أنه كان جافًّا في تعامله معها أثناء فترة الخطوبة، ولكنها أرجعت السبب لكونه يحترمها، ويخاف عليها حتى من نفسه. خاصة أنه لم يطلب أن تدخل معه في أي علاقة، بل اختارها كزوجة من أول لقاء، وصارحها بإعجابه وقصده الشريف. ذلك القصد الذي تحبه أغلب بنات مجتمعها، من يرون في العلاقات ما قبل الزواج تضييعًا للوقت، والجهد، وفترة استغلال من قبل الرجل، قد ينهيها في أي وقت ممكن بكل أريحية. بعدما أصبح الكل يعلم أن فلانًا كان يرافق فلانة، وكانت تحبه.. مع كثير من الخطوط الحمراء تحت كلمة تحبه.

انشغلت لينا بفرحة الارتباط أكثر من الشخص الذي ارتبطت به، وكانت تظن أن كل الرجال يشبهون بعضهم بعضًا في التعامل مع المرأة، خاصة أنها جميلة جدًّا، مما يجعلها تسمع كلمات الإطراء والإعجاب من محيطها أكثر من أي شيء آخر. كانت شبه متأكدة أن جمالها قادر على استفزاز رجولة أي شخص ليسمعها ما يحرك مشاعرها. بل بنت أحلامًا كثيرة اقتبست جلها من المشاهد الرومانسية التي تراها في الأفلام، وآمنت بشكل قاطع أن الحياة الزوجية حتى وإن كانت فيها بعض الصعوبات فقد تمحوها كلمات الغزل التي سيسمعها لها محمود كل ليلة.

أما محمود فرأى في عروسه الجمال الذي يرغب به، وسمع عن أخلاقها العالية التي تتناسب مع شريكة للحياة سيمنحها لقب الأمومة فيما بعد. وكان شخصًا عمليًّا وجديًا جدًّا، تخرَّج من الجامعة بسرعة ليدير مشاريع والده الكثيرة، لأن الثروة تحتاج إلى من يحفظها.. وكان غامضًا مع الجميع، لا يعلم أحد عما يدور في رأسه، أو حتى ما الذي يخطط له، حتى أصدقاؤه المقربين يتساءلون: هل عنده حب في حياته؟ هل دخل أي علاقات سابقة؟ لا أجوبة واضحة.

فترة ما قبل الزواج عند لينا ومحمود مرت بسرعة البرق، تجهيزات سريعة في ظل إمكانيات متوفرة، لا تترك حتى فرصة للخلافات أن تنشب، فعادة ما يكون المال العائق لانفجار المشاكل الأولية، ولكن عند هذا الثنائي، لا عائق يوقف العلاقة.. فقط الرومانسية قليلة، ولكن لا مانع، فبعد الزواج هناك ما يكفي من الوقت للحب وتفاصيله.

بدأت حياة الثنائي هادئة بشكل مبالغ فيه.. كان محمود لطيفًا، كريمًا، ذا أخلاق عالية، يوفر لعروسه كل سبل السعادة ولكن بصمت. قد يبادلها الأحاديث أحيانًا كأنها زميل عمل، أو حتى كأخت، وقد ينصت لها باهتمام عندما تتحدث، ويتفاعل مع حواراتهما حول الحياة، والمجتمع، والأخبار وغيره.. ولكن وبعد مرور فترة لا بأس بها من زواجهما، لينا تتساءل سرًّا دون أن تحرجه، أين كلمات الحب والغزل التي طالما انتظرتها؟

فقد اكتشفت فعلًا أن محمود رجل صامت فيما يتعلق بالحب، مما جعلها أمام معادلة صعب عليها حلها، وهي تتساءل: هل هو فعلًا يحبني؟ فتصرفاته المليئة بالاهتمام تؤكد أنه يحبها، ولكن صمته الدائم فيما يتعلق بالمشاعر يعطي للشك مجالًا كبيرًا لينهش في ثقتها به وبنفسها.

وقد حاولت لينا أن تثير مشاعر محمود الكلامية، وتكن سباقة بكلمات الغزل والحب، فكان يأتيها الرد عبارة عن ابتسامات، أو كلمات بسيطة يقولها على استحياء كنوع من المجاملة. لتحاول أن تصبح أكثر صراحة وتسأله بشكل مباشر، ذلك السؤال الذي يستفز الرجال (لا أعلم لماذا)، «هل تحبني؟»، فيرد عليها بذلك الجواب الذي يستفز كل النساء ويردده الرجال بحرفية عالية: «طبعًا.. أجل لماذا تزوجتك؟». وهذا الجواب كفيل بأن يقضي على أي إحساس رومانسي، أو سعادة يمكن أن تشعر بها المرأة، كونه عمليًّا جدًّا وخاليًا من أي ابتكار.

استمرت لينا في التأقلم حينًا، وفي محاولات التغيير أحيانًا أخرى، حتى إنها سألت صديقاتها عن أزواجهن هل كلهم صامتون؟ بعضهن اعترفن أنهن غارقات في نفس المعاناة وتعودن عليها، فالحياة الزوجية لا تشبه العلاقات العاطفية، وبعضهن اعترفن أنهن يسمعن كلمات جميلة، فقط أوقات المعاشرة، وأخريات فضلن عدم الخوض في التفاصيل ولكن بدا عليهن الرضى عمومًا.

هنا استأنفت لينا رحلتها مع الشك من منظور مختلف، لماذا لا يسمعها محمود كلمات جميلة حتى أثناء المعاشرة؟ فبدأت تقف أمام المرآة تبحث عن العيوب، الذي رآها فيها زوجها لكي يبقى صامتًا أمامها. فدخلت في متاهة من نوع آخر، الهوس بالجمال والتجميل، التكبير والتنحيف.. ودائمًا تسعى للإجابة عن نفس الأسئلة: هل سيلاحظ التغيير؟ هل سأعجبه؟ هل سأكون مثيرة وأدفعه للخروج عن صمته؟ ولكن يبدو أن محمود لا تعنيه الأحجام كثيرًا، فكان لا يلاحظ الفرق.. وكعادته صامت.

عاشت لينا في دوامة من الحيرة، فسنة أولى زواج مرت بصمت موجع، فقد تغير كل شيء حولها، إلا مشاعرها فلازالت تبحث على من يحركها ولو بكلمة. ولم تفضل الدخول مع محمود في نقاش خوفًا من نعتها بالمرأة «النكدية» التي تبحث عن المشاكل بدون سبب، كونه يوفر لها كل ما تريده، والكلمات ليست مهمة، فهي إضافات قد يحترفها الرجال للإيقاع بالنساء وليس بزوجاتهم (هذا فعلًا ما يظنه بعض الرجال في مجتمعها).

قررت لينا أن تستسلم وتضع لحياتها أولويات جديدة، بعد أن فقدت الأمل في سماع كلمات الحب والغزل من محمود، خاصة بعدما علمت أنها حامل في طفلها الأول. فاتخذت قرار أن تعيش مثل باقي صديقاتها، صامتات يهبن السعادة لأبنائهن، يستمتعن بما يوفره أزواجهن لهن من واجبات، يبدو أن ما يقال «تفاصيل الحب أعمال سينمائية يبرع في إخراجها وكتاباتها المحرومون»، كان صحيحًا جدًّا، فالحياة أكثر قساوة مما كانت تتخيل.

وأصبحت الحياة روتينية جدًّا وباردة بما فيه الكفاية، فلينا تتغاضى أحيانًا وتتألم أحيانًا أخرى، فصمت الشريك أطفأها، ودمَّر ما بداخلها من أحلام وخيالات وردية. باتت باهتة، رغم امتلاكها كل شيء، فهي الآن في وضع مادي واجتماعي تُحسد عليه. وهذا ما جعلها لا تفكر في الانفصال أبدًا، فما تفتقر إليه لن يمنحها حق المطالبة بالطلاق في مجتمع لا يعترف أبدًا بضرورة سماع الكلام الجميل. هي اليوم أم وزوجة محكومة بالمؤبد أمام محيطها، والسبب أن ما تملكه أكثر مما تعاني من فقدانه من وجهة نظرهم.

وككل امرأة مرفهة وقت فراغها أكثر من انشغالها، كانت لينا تدمن مواقع التواصل الاجتماعي، عالم الأشخاص المزيفين الذي يصطنعون فيه السعادة لإبهار من حولهم، وكانت بطلة في تمثيل دور المرأة السعيدة. ويبدو أن هذا العالم هو الوحيد الذي كان يشعرها بقليل من الرضى،

فعندما ترى تفاعل الناس مع ما تملك، وما تدّعي امتلاكه، ترتاح نفسيًّا وتقتنع أنها سعيدة، ولكنها جاحدة للنعم الذي حولها.

فلينا التي كانت تمتلك الجمال قبل زواجها أصبحت اليوم تملك المال والجمال والجاه، والمكانة الاجتماعية المرموقة، ما جعل من مواقع التواصل المكان الأنسب لها لتعرض ما تملك وتخفي ما يؤلمها. فبدأت تنغمس أكثر وتبحث عما تفتقده في حياتها، فوجدت الإطراء الذي تبحث عنه، والكلمات الجميلة، والتعليقات المستمرة، بين من يتغزل في جمالها، ومن يطري إطلالتها، ومن يثني على ذوقها الراقي في اختياراتها.. وتتوالى الكلمات التي تشبع جوعها العاطفي نوعًا ما.

لم تكن تعلم لينا أنها تنغمس في عالم مزيف، مليء بالكلمات المعسولة، خالٍ من أي واقعية. فبدأت تعجب بتعليقات، وتخوض محادثات، وتتبادل الإعجابات، فتكثر حرارة العالم الافتراضي وتزيد برودة العالم الحقيقي. وبما أن الخطأ دائمًا يحتاج إلى تمهيد، فكان تجاوب لينا مع ما يصلها من كلمات جميلة، بداية الورطة.

بإعجاب، ثم بتعليق، وبعدها محادثة قصيرة، ثم محادثة طويلة.. وقعت لينا في شراك العلاقات الإلكترونية، الوهمية في شكلها والحقيقية جدًّا في مضمونها. والمعجب الإلكتروني الجديد كان في الأول يغازل عن بعد، ويتبادل الأحاديث والاهتمامات، ثم يكثر من السؤال والاطمئنان، ثم يترقب الأنشطة اليومية.. ليصلا إلى مرحلة العلاقة التي بنيت على الكلمة الجميلة، وهذا النوع من العلاقات لا يستهان به أبدًا كونه مبنيًّا على مشاعر مترجمة على هيئة كلمات مريحة، تدخل السعادة إلى القلب.

ثم تغيرت حياة لينا ومزاجها فجأة دون أن تعلم هي سبب ذلك، أصبحت أكثر ابتهاجًا وسعادة وما تسمعه يوميًّا من كلمات الإطراء يعطيها إشراقة طفولية مميزة، فأصبحت تحرص على الاهتمام بنفسها لتسمع رأي المعجب الإلكتروني، فلقد وجدت ما ينقصها.. فالخطأ أحيانًا يكون ممتعًا لدرجة أنك لا تعلم بانغماسك داخله.

لم تشك لينا لوهلة في نفسها أو تحس أنها تخوض في تجربة خيانة كبرى، كانت ترى في العلاقات الإلكترونية شيئًا وهميًّا ليس حقيقيًّا، قد يدخل الفرحة والبهجة عن بعد، وكأنه لعبة إلكترونية أبطالها أشخاص وهميون.

ولكنها لم تتوقع لوهلة أن أعمالها حتى وإن لم تكن خطأً في نظرها، فهي ستقع في شرها وبسرعة كبيرة، كونها فاشلة في إدارة علاقة سرية، ولن تنجح في المحافظة على خصوصيتها.

وفي يوم لم تعمل له حساب، حمل محمود هاتف زوجته بالصدفة ليكتشف رسائل معجبيها الكثيرة، ثم يرى محادثاتها مع معجبها المفضل، مع كميات من الغزل والصور المتبادلة. رأى كلمات كثيرة لم يقلها لها يومًا، ورأى سعادتها وامتنانها لما سمعته، تلك السعادة التي لم ينجح في خلقها بدوره كزوج صامت. ولكن محمود لم ير أنه مقصر، ولم يكتشف حتى موطن الخلل، في نظره هذه الكلمات تقال من طرف رجل يريد الإيقاع بامرأة، وتستمتع بها المرأة الجاحدة التي تغويها الكلمات ولا تقدر الأفعال..

لينا أصبحت امرأة مطلقة بتهمة الخيانة، ولم يواجه أحد محمود بتهمة الصمت..

☆ ☆ ☆

ملوك المشاعر.. ضحايا بائعي الوهم!

هل اشتريت الوهم يومًا؟ أم استلمته كهدية ملفوفة بورق أنيق، جميل، يأسر القلوب؟

قد يبدو لك الأمر غريبًا، أو غير واضح، كيف لشخص أن يشتري الوهم؟ ولكن السؤال الأهم من ذلك هو: من يبيع الوهم؟ وكيف يصنعه؟ ومن أين له بتلك الحرفية العالية في إبداع تفاصيل من ضباب لها شكل جذاب بدون أي مضمون يُلمس؟

بائع الوهم هو..

من يصنع الوعود وينسى الوفاء بها..

من يمنح الأمل ويتبعه بالخذلان..

من يرسم مخطط السعادة، ليسكب عليه حبر التعاسة فيما بعد..

من يصنع الأحلام، ثم ينسفها بالكوابيس..

من يكتب الأشعار الحالمة، ثم يختار لها لحنًا حزينًا..

قد تكثر التشبيهات والمعنى واحد، بائع الوهم شخص خبير في سرقة الفرحة، يتغذى على الوعود الكاذبة التي تصنع السعادة المؤقتة المتبوعة بكسر، قد يهشم ما بداخلك.. لتحتاج فيما بعد لكثير من الوقت لتجبره، وتلملم أشلاءك النفسية المحطمة.

غالبًا بائعو الوهم يحملون صفات مشتركة، اجتماعيين، يعاشرون الجميع دون تردد، غير مسئولين عما يقولون، أو بما يعدون، ويرددون عبارة: «نعيش اللحظة» باستمرار، تلك العبارة السامة القادرة على تدمير أحلام كثيرة..

لطالما تساءلت: كيف يستطيع الشخص أن يهدم كل ما جمعه بالآخرين من لحظات سعيدة، وكلمات حب وثقة، وكثير من الغزل، والتواصل والعشرة؟.. بعبارة: «كنا نعيش اللحظة، لم أقدم وعودًا للمستقبل.. والآن انتهت اللحظة».

كم لحظة في حياتنا نقدمها على طبق من ذهب للآخرين دون أمل في البقاء أو الاستمرارية؟ هل خلقت لحظاتنا لنتبرع بها لأشخاص يعيشونها ويرحلون؟ هل نحن محطات عبور نبيع المشاعر ونقدم السعادة في لحظات نشوة عابرة لا مستقبل لها؟

فبائع الوهم هو مِلك البحث عن اللحظات العابرة، وغالبًا ما تكون لديه حياة موازية لما يظهرها للناس. قد يملك جانبًا مظلمًا يكون فيه هو الضحية بدل الجلاد، تُمارس عليه الضغوطات، ويتم استغلاله والانتقاص من شأنه.

وبما أن تفكيره محدود وقدرته على المواجهة شبه معدومة. يقرر خلق حياة موازية يكون هو بطلها، بلحظات عابرة، غير مبالٍ بمحطات العبور، وغير مهتم بالمشاعر التي يدعس عليها في كل محطة.

ضحايا بائع الوهم، عاشق اللحظات العابرة، غالبًا ما يكونون بسطاء، حالمين، يعتمدون على مخيلتهم وعواطفهم، يحسنون الظن بمن حولهم. كما أن خبرتهم في الحياة تكون شبه معدومة.

أو فيهم الكثير من روح الطفولة، ينعمون بمخيلة تعتمد على ما جمعته من أعمال الكرتون الخيالية، حيث الفتاة الفقيرة يخطفها الأمير بعد أن التقط حذاءها، والحسناء التي وجدت سبعة أقزام في خدمتها دون أي مطامع، والمصباح السحري الذي يطل منه جن لطيف يلبي الأحلام..

وبغض النظر عن هؤلاء الحالمين، أظن أن العالم يحتاج إلى إعادة النظر فيما يقدم للجيل الناشئ من وهم، لأنه فعلًا يتسبب في خلل يجعلهم غير قادرين على التأقلم مع العالم الواقعي فيما بعد.

ما لا تعرفونه أن ملوك العاطفة الحالمين، من يُسِّلمون المشاعر زمام الأمور، هم أكبر فريسة لبائعي الوهم؛ كونهم يسهل السيطرة عليهم، بكلمات رقيقة، وتصرفات أنيقة، وبعض المواقف الرومانسية.

وعلى العموم، فكلا الطرفين يتحملان مسئولية أي نوع من الصدمات المستقبلية.

فبائع الوهم الذي تجرد من مسئوليته تجاه عواطف الآخرين، ولحظاته العابرة المليئة بالسعادة اللحظية، الشبيهة بمفعول المخدرات، تعطي نشوة مؤقتة، تزول بعد فترة قصيرة، لتعود إلى واقع بمُعاناة مضاعفة.

أما العاطفي الذي يسلم زمام مشاعره لعابري السبيل، ويبني أحلامًا من الوهم دون أي ضمانات، فيتحمل بدوره جزءًا كبيرًا من مسئولية ما حدث وسيحدث..

جميل أن نكون أشخاصًا شفافين، أنقياء، صادقين.. نعامل من حولنا برقيٍّ وثقة. ولكن في نفس الوقت يجب أن يكون العقل حاضرًا في كل وقت، يحلل كل ما يحدث، ويحسب بمنطقية ما يدور حوله، بعيدًا عن تأثير أي تفاصيل خيالية.

فلو كانت المشاعر تخدم صاحبها، لكانت «شذى» أسعد امرأة اليوم.. فابنة الاثنين والثلاثين عامًا الجميلة، والرومانسية، التي تلفت الأنظار في كل مكان تحل فيه، أنثى عاطفية لدرجة الجنون، تُقسم بالحب، وتُقدس المشاعر، وتتحدث لغة لونها وردي من فرط الإحساس، فهي شبيهة بمعزوفة سلام، تُحلّق حولها الملائكة.

تقول شذى: «خُلقنا من أجل الحب.. وفي حضرة المشاعر يتحدث القلب لغته، ويعطي أوامره، ليصمت العقل، ويذهب التفكير إلى الجحيم، فالعاطفة صاحبة القرار الأول والأخير..».

أما فارس أحلام شذى فليس لديه الكثير من المواصفات المتعارف عليها بين بنات جيلها، هي فقط ترغب في الرومانسي الذي يتحدث من الكلام أعذبه، ويحفظ من الشعر أجمله، ويُتقن فن الغزل، وبارع في بروتوكول الرومانسية الذي يبدأ بالوردة الحمراء، وينتهي على شاطئ البحر مع كلمة «أحبك».

تلك الشذى الرقيقة ترى في الارتباط العائلي أو حتى العقلاني نوعًا من التدمير الذاتي الذي يحرم الإنسان حقه في أجمل متعة عرفتها البشرية. وترى أن دهشة الإعجاب الأول، ثم حماسة اللقاء الثاني، وتصاعد ضربات القلب في اللقاء الموالي، أهم مشاعر قد يختبرها الإنسان طيلة فترة حياته.

ولكن ما كانت تجهله شذى فعلًا أن النهايات التعيسة قادرة أن تعصف بكل المشاعر الجميلة التي عاشتها، والقلب الأعمى قد يقع في اختيارات خاطئة كثيرة، والاعتماد على الحدس وبناء التوقعات قد يتسبب في انهيار كل الحواس فيما بعد، بل يؤدي إلى صدمات تكسر ما بداخلك لتصبح غير قادر على الاستمرار، وتحتاج إلى وقت طويل لاسترداد قوتك العاطفية أو حتى البداية من جديد.

وبما أن الحظ ليس حليفًا لكل البشر، وقلب شذى كان مغفلًا نوعًا ما، ويميل إلى بائعي الوهم، من يعطون الكثير من المشاعر المؤقتة، التي تبني سعادة عابرة، اضطرت أن تخوض الكثير من التجارب البئيسة التي تبدأ بدهشة الإعجاب، وتنتهي بدهشة الصدمة. والفترة الممتدة بين الدهشتين عبارة عن قصص متشابهة، بتفاصيل مكررة، فقدت بريقها مع مرور الأيام.

ويكفي أن نعرف تفاصيل العلاقة الأولى لنعلم ما حدث فيما تبقى من العلاقات، التي تبدأ بنظرة إعجاب (نظرة غالبًا ما تكون خادعة)، ذلك الانبهار الذي يحدث في أول لقاء قد يكون مبنيًّا على شكل الأشخاص، أو هيئتهم وتصرفاتهم المبدئية التي تكون أحيانًا لطيفة وفيها الكثير من الحذر والتجمُّل.

في إحدى قصص شذى المتشابهة قابلت محمود في أحد اجتماعات العمل، فلفتها بوسامته وإطلالته التي يبدو أنها تأخذ منه الكثير من الوقت والمجهود، فهذا النوع من الشباب يكون قريبًا من الصورة التي ترسمها كل أنثى لفارسها. فلم نرَ يومًا امرأة تحلم بشخص وزنه زائد، أو لديه كرش، بل لا شعوريًّا تفكر في الشخص الوسيم، وما يساعدها على ذلك الأفلام والدراما، وشباب مواقع التواصل.

وبدأت علاقة شذى ومحمود بنظرات الإعجاب المتبادلة، ثم بعض الأحاديث داخل إطار العمل، وبعدها تبادلا أرقام التواصل. لتبدأ الرسائل ثم الأحاديث المطولة، ثم ذلك الانبهار الذي ينمو ويكبر.. فيرى الطرفان أنهما متشابهان في أغلب الأمور، ويحبان أشياء مشتركة، وينجذبان لبعضهما بقوة أكبر.

وكأنثى تفكر بعاطفية وبساطة، بدأت شذى تبني أحلامًا في مخيلتها، أو بالأحرى وجدت الوجه الذي ركبته على أحلامها التي كانت جاهزة فقط تفتقد إلى الشخص الذي سيلعب دور البطولة.

فمخيلتها كانت مليئة بقصص ومشاهد رومانسية، نسجتها بدقة وحرفية، واختارت لها المكان والزمان، بل وكتبت الحوارات التي ستدور فيها، واختارت الأبطال المشتركين، وخططت للنهاية السعيدة والفستان الأبيض، ونوع باقة الورود التي ستحملها يوم زفافها.

بدأت شذى مرحلة الترقب، وانتظار تنفيذ الأحلام على أرض الواقع، دون أن تضع أي احتمال للفشل. ولم تتوقع أبدًا أن يكون محمود، ذلك الرجل الوسيم الذي يداعب جمالها بغزل مستمر، ويقضي معها أوقات رائعة، غير مبالٍ أبدًا بأحلامها، هو مستمتع بعلاقتهما فقط و«يعيش اللحظة».

وللأسف غالبًا ما تحدث هذه المفارقة، في أغلب العلاقات المبنية على العاطفة، وغير الواضحة الملامح؛ حيث يتصرف الطرفان تصرفات متشابهة، من اهتمام وحب وسؤال وأوقات مشتركة، ولكن الأهداف تكون مختلفة تمامًا. بين من يسعى إلى الاستمرارية والبناء، ومن ينعم باللحظة السعيدة بشكل مؤقت، ليحلق بعدها من جديد بحثًا عن لحظة أجمل.

وبدأت المشاكل بين شذى ومحمود بشكل غير مباشر، فهي تشعر بالضيق والتعب، لأنها لم ترَ حتى الآن ما توقعته وخططت له، مما يجعل تصرفاتها تجاه شريكها تتغير، ويصبح فيها بعض من العدوانية، وكرامتها لا تسمح لها بمواجهته بما يدور في رأسها. ومحمود متفاجئ، يرى أن شريكته أصبحت نسخة من تلك النساء المزعجات اللاتي يبحثن عن اختلاق المشاكل (كما يفضل وصفهن).

ثم تطورت المشاكل، وزادت الخلافات، بين هواجس شذى، واستغراب محمود، إلى أن جاءت ساعة الحقيقة، واضطر الثنائي للمواجهة..

محمود: ما الذي غيرك؟ أصبحت شخصًا لا أعرفه..

شذى: لم أتغير، أنت شخص غامض..

محمود: كيف؟ وأنت تعلمين كل أحداث يومي وحياتي؟

شذى: وماذا بعد؟

محمود: لم أفهم..

شذى: ما بعد أحداث يومك وحياتك، إلى أين نحن متجهان؟

محمود: ليس بالضرورة أن يكون لنا اتجاه، المهم أن نكون مع بعض..

شذى: إلى متى؟

محمود: ماذا تريدين أن تعرفي بالضبط؟

شذى: ما آخر هذه العلاقة التي تجمعنا..

محمود: لا أعلم، كل ما أعرفه أننا سعداء مع بعض.

شذى: وأنا أريد أن أعلم، لأني لا أحب العلاقات الخالية من الأهداف.

محمود: لم أعدك بأي شيء عندما التقينا، وكنت سعيدًا باللحظات الجميلة بيننا، لست من محبي الخطط، وأترك القرار للأيام..

ما قاله محمود لشذى في آخر لقاء أصبح كتعويذة ملعونة تتكرر على مسامعها في كل علاقة تدخلها تقريبًا.. تخيب توقعاتها، وتنسف أحلامها، وتضيع تلك السعادة التي تسعى إليها.

وكل مرة تختلف الحجة عن الأخرى، بين غير المستعد للاستمرار، ومن لا يفكر في الارتباط الجدي خوفًا من المسئولية، ومن مر في تجارب فاشلة يخاف من تكرارها، بل ومن يتضح فعلًا أنه متزوج ولكنه يبحث عن الحب في أماكن أخرى.. واختلفت الأسباب، والنتائج متشابهة.

ولكن شذى غالبًا متشبثة بتوقعاتها، وتظن أن العالم يفكر مثلها، وترى في الانبهار الأول البداية السليمة، وأن الاهتمام والمشاعر طريق للاستمرارية، والحب باب مباشر نحو الارتباط!

لم تعلم بعد أن العالم أصبح محكومًا بقوانين أخرى لا تشبه ما تفكر به، بداية بقانون العقل وصولًا لقانون المصالح، مرورًا بقواعد قد تكون غير منطقية، ولكنها موجودة. لم تعلم أننا في

زمن أصبح فيه الحب عبارة عن مشاعر لحظية عابرة، وقلَّة فقط من الأشخاص من يحترمها أو يختار الاستمرار عليها.

فشذى وغيرها يجب أن يعلموا أننا في زمن العقل والمواجهة الصريحة الذي يفرض على كل العلاقات أن تُبنى على اتفاقات واضحة من البداية، مع الاحتفاظ التام بالمشاعر لكي لا تُصبح عرضة للانتهاك في كل وقت وحين.

فمشاعرنا لا يستحقها إلا من سعى إليها بجدية ووضوح بعد أن أصبحنا في مجتمعات عملية جدًّا، تعبر عما بداخلها بقلب ووجه ضاحك على مواقع التواصل. فعليًّا بتنا نحتاج إلى تحديث لتصرفاتنا لنواكب ما نعيشه..

الحب شيء جميل، والاستمتاع بالاهتمام والمشاعر الجميلة شيء رائع.. فقط التسرع، والبدايات الضبابية قد تحول الحلم إلى كابوس.

☆ ☆ ☆

السعادة.. أن تضع لنفسك أولوية

هل حددت يومًا أولويات حياتك؟ كيف فعلت ذلك؟ وهل أعطيت جزءًا كبيرًا منها لشخص معين؟ أم فضلت أن تمنح نفسك المرتبة الأولى؟

قد يتهموك بالأنانية وحب الذات إذا اتخذت قرارًا بأن تضع نفسك ومصلحتك أولوية. لماذا ربطت سعادتك بإنجازاتك ونجاحاتك، وليس بأشخاص؟ هذا ما قد يفسد عليهم متعة مشاهدة انكسارك بعد كل خيبة أمل تتعرض لها!

قد يقع الإنسان في أخطاء كثيرة يكتشفها مع الوقت ويستفيد منها إلى أن يصل مرحلة النضج. تلك المرحلة العظيمة التي يستمتع فيها الشخص بسلام نفسي، يتذوق لذَّته، بعد الدروس الكثيرة التي حفظها، وأصبحت منهج حياة يبعد بفضلها عن الخطأ ويتقن من خلالها الصواب.

وتأكد أنك ستصل لمرحلة النضج لتعلم أنك يجب أن تكون أولوية في حياة نفسك، ثم يأتي الآخرون بعدك. وهذه الحقيقة بعيدة كل البعد عن الأنانية أو الغرور أو أي كلمة قد يسمعك إياها أي شخص لم ينجح في أن يشبهك؛ لأنه وبكل بساطة حب الذات والاهتمام بها بمثابة خزان الوقود الذي يمنحك طاقة قوة العطاء، والنجاح والاستمرار أمام مصاعب الحياة.

وأظن أن مشكلة عدم تقدير الذات، وإعطاءها حقها المطلوب والسعي لإسعادها، نابعة من خلل مجتمعي، نعاني منه في العالم العربي بالدرجة الأولى. ويصاحب الأفراد منذ نشأتهم، حيث يسعون لإسعاد الآخرين منذ الطفولة، بداية بإرضاء الأب والأم، ثم المعلم، ثم العائلة الصغيرة والعائلة الكبيرة، ثم المجتمع، ثم العادات والتقاليد.. ويستمر الشخص يرضي هذا وذاك، وينسى إرضاء نفسه.

على عكس المجتمعات الأخرى التي يسعى الفرد فيها للبحث عن إرضاء نفسه منذ بداية حياته، سواء في اختيار تخصصه الدراسي، أو اختيار شريك الحياة، أو المكان الذي يفضل العيش فيه وحتى اختيار الاستقلالية في وقت مبكر، لاكتشاف الذات وبنائها، وسعيها وراء ما يسعدها.

في مجتمعنا قد ننشأ بدون هدف، ولا نعلم ما معنى الإنجازات الفردية الحقيقية، وكل ما نسعى له إرضاء الآخرين ظنًّا منا أن هذا هو المعنى الحقيقي للسعادة. وقد لا يكون ذنبك، لأنك نشأت على هذا القانون ولا تعرف غيره.. فأنت الطفل الذي عاقبك المعلم لأنك لم تسمع كلامه، وعاقبتك الأم لأنك لم تنفذ أوامرها، ولم يرضَ عنك مديرك في العمل لأنك أنجزت مهمتك بطريقة مختلفة، وتركت حبيبتك لأن العائلة لم ترضَ بها، وأنجبت ولدًا لتسعد والدك، وأنجبت بنتًا لتسعد زوجتك.. وتستمر الحياة، مع الكثير من الأحداث والإنجازات، لأجل الغير وليس لأجلك.

لا يعلم الكثيرون أن نشأة الشخص دون أن يوجه لنفسه سؤالًا: «هل هذا الشيء يسعدني؟ أم أنه فقط يرضي غيري؟»، يؤدي به إلى مرحلة خطيرة، وهي ربط السعادة بالآخر ورضاه عنه، وتواجده في حياته. هذا ما يجعلنا نقع في فخ «التعلق» الذي يهدم العلاقات، ويقضي على الاستقلالية والإنجازات والنجاح.

ما لا تعرفونه عن داء التعلق الذي يظنه البعض حبًّا والآخر تضحية، بل هناك من يظن أنه

التطور الطبيعي لأي علاقة، وهذا أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه الإنسان، عندما يتجرد من نفسه لأجل الآخرين. كم مرة قدمت تنازلات ليرضى عنك الشريك؟ وكم مرة ضحيت بأشياء قد تبني مستقبلك وتدعمك، لأن الطرف الآخر لا يريدها؟ وكم مرة رهنت سعادتك وربطتها بوجود أشخاص معينين في حياتك؟

لا ننكر أن الحياة مع شركاء شيء جميل، فالبناء والعطاء المشترك يمنح البهجة المضاعفة، ويجعل الأيام أكثر أمانًا واستقرارًا. ولكن هذا لا يعني أن نتجرد من أنفسنا وأحلامنا لنكرس كل ما منحنا الله من عقل وتفكير

وقدرات لشخص بعينه، وليس لهدف يسعدنا. فلا أظن أن خالق الكون والبشر، أوجدنا في هذه الحياة، من أجل شخص دون غيره. نحن هنا لنعمر، ونبني، ونرضى، ونستمتع، ونسعد أنفسنا ثم الآخرين.

أما داء التعلق بالأشخاص فهو ليس حبًّا كما يظنه البعض، بل هو تجرد من الذات، وخليط من الخوف والقلق والتربص وهاجس الفقدان. عندما تتعلق بشخص، فأنت تنسى نفسك، وتبدأ في محاصرته، بداية بالاهتمام الزائد، وصولًا إلى فرض قيود تسجنه داخل اهتمامك.

ولكن عندما تتعلق بهدف بعيدًا عن الأشخاص فأنت تسعى نحو تطوير الذات، ومنحها حقها. فتستمتع ببناء شخصيتك، وتجد السعادة في كل خطوة تقبل عليها، فتصبح ممتنًّا لنفسك في كل ما تقبل عليه. وحتى تعاملك مع الأشخاص يصبح مليئًا بالرضى، لأن ما بداخلك من سلام، ينعكس على الآخرين.

وتبقى دائمًا الكلمات مبهمة، ولا يتضح معناها إلا إذا عززتها بقصة، وقد تكون القصة شبيهة بمئات الأحداث الذي نصادفها يوميًّا، نراها ونعيش ضمنها ولكننا لا نعرف أين الخلل؟ ما الذي دفع هؤلاء للقيام بهذا؟

كانت زينة مثال الفتاة العربية البسيطة التي تنشأ ضمن قالب معين لا يُسمح بكسره. يصفونها بالمطيعة التي تسمع الكلام، وتنفذ الأوامر منذ الصغر. فهي المتفوقة في الدراسة، والمساعدة الأولى في البيت، ليس لديها صديقات إلا في نطاق محدود من الأهل، لا تخرج إلا برفقة الأم. فسعادتها مرتبطة بشكل كبير بكلمات الرضى التي يغدق بها الأهل عليها دائمًا.

ورغم تفوقها الدراسي الذي تسعد به من حولها، فقد كانت أهدافها بسيطة، متعلقة بإرضاء الآخرين بشكل كبير. فهدفها النجاح الدراسي ليفتخر والدها بها، وهدفها الزواج وإنجاب الأولاد، لإسعاد والدتها وجدتها. ولم أسمع يومًا من زينة أي هدف مجرد من وجود الآخرين ومتعلق بها كشخص.

عاشت حياة بسيطة وهادئة، يكاد لا يُسمع لها صوت فيها، فالآراء المحيطة بها كثيرة، لا تعطيها حتى فرصة للتفكير بصوت عالٍ. وكانت تنفذ ما يُرسم ويخطط لها دائمًا. حتى أقبلت على الجزء الأهم، الذي طالما انتظرته.

جاء موعد اتخاذ قرار الارتباط الذي وكّل للأهل، لأنهم أدرى بمصلحتها. وكان يتم اختيار شريك الحياة بناء على شروط مسبقة وجاهزة، الوضع العائلي والمادي والأخلاقي من وجهة نظر لجنة التحكيم (الأهل).

وكان «رضى» هو سعيد الحظ الذي نال القبول، ولم يختلف عن زينة في شيء، فصفاتهما مشتركة لحد كبير، هو كذلك شخص مطيع، يعيش ليسعد عائلته ومحيطه. ولكن الفرق البسيط الذي كان بمثابة إنذار خطر على الثنائي المقبل على حياة زوجية جديدة، أن رضى كان يملك طموحًا غير محدود في مجال عمله، يحلم بالنجاح لأن الحظ حالفه واختار تخصصًا يحبه ويستمتع فيه، وأظن أنه كان الشيء الوحيد الذي اختاره بمحض إرادته ورغبته الشخصية.

بدأت حياة الثنائي هادئة، فزينة قررت أن تكرس نفسها للبيت، ولرضى ولأولادها الذي يجب أن تسرع في إنجابهم، لأن والديها يحلمان برؤية أحفادهما عما قريب. واستغنت عن إكمال دراستها رغم التفوق، ولم تطمح للعمل، بعد أن أضافت مهمة إسعاد زوجها إلى قائمة مهامها.

ولكن زينة لم تكن تعلم أن كفاءتها ونجاحها الكبير في إرضاء والديها ليس كافيًا لإسعاد الزوج، وأن علاقتها بالأهل تختلف اختلافًا كبيرًا عن العلاقة بالشريك. هذا الأخير يجب أن تكمل معه الحياة كطرف مُشارِك، متفهِم، متقبل لكل جديد، يرسم خططًا واضحة للحياة ولمستقبل مشترك.

كانت زينة تظن أنها تحب رضى بجنون، فتحاصره بالاهتمام الكبير، وقد تفرغت لإسعاده، وكرست كل وقتها للتجهيز له وانتظاره. وفي أوقات غيابه، تتواصل معه باستمرار كنوع من الاهتمام، والغيرة والشك المبطن. وقد انسحبت من أنشطة الحياة بأكملها، بل أهملت كل ما يتعلق بها، لترضي رضى، مع أن هذا الأخير لم يطلب منها كل هذا، بل كان يشجعها على العودة إلى إكمال الدراسة أو حتى العمل.

ولكن السعادة من منظور زينة الشخصي تتجلى في الاهتمام برضى ليكون راضيًا، ولكي تسمع من عائلته كلمات الإطراء كونها امرأة ضحت بكل شيء من أجل زوجها وبيتها، ولتطري عليها والدتها، لأنها نجحت في تربية ربة بيت مطيعة وناجحة.

لقد نشأت زينة على هذه القواعد الراسخة التي يصعب كسرها أو التخلي عنها. فلن تستطيع تغيير مفهوم معين عند شخص تربى عليه، وما بالك إذا كان هذا المفهوم تعريف لمعنى السعادة عنده؟! ولكن الأكيد أن التجربة هي الشيء الوحيد الكفيل بتغيير مبادئ أي إنسان.

وبعد أن بدأ روتين الاهتمام الزائد يسيطر على علاقة زينة ورضى، ظهرت المشاكل والحوارات العقيمة التي تعكر صفو أي شريكين.. وتلك الكلمات التي تتكرر ليصف بعدها الرجل زوجته ب «النكدية» وهي تصفه ب «المهمل»..

ومن بين الحوارات التي كانت تدور بشكل يومي بين الشريكين..

زينة: لماذا لم ترد عندما اتصلت؟

رضى: كنت مشغولًا في اجتماع..

زينة: اجتماعاتك لا تنتهي؟

رضى: إنها طبيعة عملي..

زينة: انت لم تعد تهتم بي، ولا لبيتك وأصبحت تهملني..

رضى: أنا أعمل من أجلك ومن أجل أبنائنا..

زينة: لم تعد تحبني..

رضى: أنت تعانين من الفراغ الكبير، يجب أن تجدي شيئًا تهتمين به غيري..

الكلمات الأخيرة التي نطقها رضى كانت بمثابة الصدمة لزينة، كيف يتهمها بالفراغ وهي تحاول إسعاده؟ بل وتعمل جاهدة على الاهتمام به، ولا تشعر بمتعة الحياة إلا إذا كان راضيًا عنها.

أليس هذا ما كانت تعيشه مع أسرتها؟ ألم تنشأ مع أم تكرس حياتها للأب والأولاد لإسعادهم؟ وهي بدورها كرست حياتها لإسعاد والديها، والآن تسعى لإرضاء زوجها.. هل يعقل أن الزمن والبشر تغيروا ويجب مواكبة هذا التغيير بشكل أو بآخر؟ أم أن رضى شخص سيئ، ناكر للاهتمام، لا يشبه عائلتها، وهي تكتشف هذا الأمر للمرة الأولى؟

تلك الكلمات بدأت تشكك زينة في قناعاتها التي نشأت عليها، بل دفعتها لإعادة التفكير فيما هي عليه. ولكن تساؤلاتها الكثيرة لم تجد لها إجابة أو تفسير، فالشخص الذي تعود المشي في طريق معين كل يوم، يصعب عليه تغييره، لا يستطيع تحويل مساره خوفًا من الضياع. ولن يُقبل على طريق جديد إلا إذا فُرِض عليه، أو كان يتمتع بجرأة كبيرة وقدرة على التغيير، وهذا ما كانت تفتقر إليه زينة بشكل كلي.

نشأت فجوة كبيرة بين زينة ورضى، فهذا الأخير يعيش طفرة في مجال عمله، ويعلو شأنه يومًا بعد الآخر. بينما زينة ثابتة في مكانها، لا تتقدم أي خطوة للأمام، تعيش في دوامة الروتين اليومية، بين بيتها وبيت أهلها..

حتى إنها أصبحت لا تعرف شيئًا عن عمل زوجها، ولم تعد تستوعب حياته التي تتجدد كل يوم.

أما رضى فمستمتع بعالمه الجديد، وحاول مرارًا أن يشرك زينة معه، فيتحدث معها عن صفقاته الجديدة أو مشاريع سيخوض في إنجازها، لكنها وصلت لمرحلة عدم الإدراك، لأن ما يقوله أكبر من معلوماتها البسيطة. بل دخلت مرحلة أكثر خطورة، وهي الشعور بالنقص، فبدأت ترفض مرافقته لحضور حفلات العمل، أو أي لقاء مع مستثمرين وزوجاتهم، لأنها لا تجد ما تواجه به هذا العالم، فلقد فقدت ما درسته وتعلمته ولم تطور من معرفتها، واكتفت بثقافة إدارة البيت، وشئون المطبخ.

بدأ رضى يحاول استبدال وجود زينة بزميلات العمل والسكرتيرة والصديقات العابرات، بحجة أنهن يتفهمنه أكثر، ويصغين له ويستوعبن ما يقوله. وأصبحت الزوجة تلعب دور الأم فقط، فهي تعتني به وبأبنائه، وبالمنزل.

وتقوم بالواجبات العملية، وتثير بعض المشاكل بين الفترة والأخرى بسبب المكالمات الليلية، والرسائل النصية النسائية.. لتستمر العلاقة على هذا الشكل إلى ما لا نهاية.

نشأت زينة على أن الحياة تقوم على إرضاء الجميع إلا نفسها، لم تفكر يومًا كيف يمكنها أن تبني شخصيتها المستقلة التي يسعى الآخرون لإرضائها. حتى استفاقت على حقيقة مفادها: «إرضاء الناس غاية لا تدرك.. وإرضاء النفس ومواكبة تطور الحياة بالمعرفة خطوات أساسية لإثبات الوجود، وفرض الاحترام والتقدير». بينما اكتشف رضى مسارًا جديدًا للحياة بعد زواجه، ووجد في مجال العمل ملاذه الذي أثبت فيه شخصيته، ولكنه لم ينجح في مساعدة زينة لكي تواكب معه هذا التطور، واختار الطرق السهلة التي تناسب وضعه الجديد.

قد يرى البعض أن القصة تتحامل على ربات البيوت والمرأة التي تكرس نفسها لخدمة أسرتها. وهذا ليس صحيحًا، فالمرأة، يجب أن تبني قاعدة الثقة بالنفس أولًا، لمواجهة الحياة. وحتى إذا اختارت أن تكون ربة بيت يجب أن تواكب تطور الحياة المعرفية، وتخلق لها عالمًا موازيًا، تثبت فيه وجودها.. لنتذكر دائمًا أننا محور الحياة، وبعدها يأتي الآخر، وإذا حرصنا على وضع أنفسنا كأولوية، فسننجح في كل شيء.

☆ ☆ ☆

عالم موازٍ.. اختلَّت فيه الموازين

إذا أعطوك ورقة وقلمًا، وطُلِب منك رسم شكل للحياة التي ترغب أن تعيشها، فكيف ستكون؟!

في هذه الصفحة التي ترسم فيها، ستلون بيتك، وممتلكاتك، وأحداثك اليومية، بل حتى أفكارك ومبادئك. بذلك القلم، ستكون قادرًا على مسح كل شيء يؤرقك أو يعكر صفو مزاجك، وستكون قادرًا على خلق الفرح الدائم والمستمر، لكي تحيا كما تهوى!

هذا بالتحديد ما يحدث على مواقع التواصل الاجتماعي عندما نخلق عالمًا موازيًا لعالمنا، نحاول من خلاله تجميل الواقع وادعاء المثالية.

هناك نكتب الحكم، ونتناقل الموعظة والنصائح لنظهر مدى مسئوليتنا ومشاعرنا الإنسانية. هناك نلتقط صور الابتسامة، والضحك والفرح، ونغني ونرقص وندَّعي السعادة، حتى وإن كان الحزن يعتصر قلوبنا. هناك قد نحتج ونعارض وترتفع أصوتنا الوهمية ضد الظلم، لنظهر مدى أخلاقنا العالية.

هناك تركز عدستنا على الجانب المشرق من حياتنا وممتلكاتنا، فنصور كوب القهوة، ونضع لمسة ضبابية على الفوضى التي قد تظهر خلفه. وقد تصور إحداهن حقيبة يدها، وتغفل نشر فاتورتها، ولا نعلم ما إذا كانت تلك الحقيبة أصلية أم تقليدًا. وقد تصور كيف تضع مساحيق التجميل وهي تضحك، ولا نعلم ما الذي تخفيه تلك المساحيق، هل فقط بشرة شاحبة؟ أم بقايا ألم وأوجاع؟

وهناك قد تُظهِر سعادتها الزوجية، وجمال أطفالها، ولا تنشر خلافاتها التي تتعالى فيها الأصوات والمشاحنات، ولا نرى طفلها الذي يبكي عندما يمرض وعندما يجوع وعندما يحتاج لتغيير الحفاضات.

فهل مواقع التواصل الاجتماعي تنشر الحقيقة؟ أم تصدر للناس الوهم على أنه واقع؟

الحقيقة لا هذا ولا ذاك، فتلك المواقع هي بمثابة ملجأ يهرب منه الشخص من حياته التي لا تخلو من المتاعب، إلى عالم آخر خلقه بأجهزته، وصممه على مقاس فرحته، وملأه بتفاصيل يطمح أن يكون عليها أو يمتلكها. وقد يكون جزء منها حقيقيًّا، ولكن في الغالب أنها ليست كلها حقيقية، فيها من التجمُّل والتظاهر ما يكفي.

ولكن المشكلة ليست فيمن يتظاهر بالسعادة، ويُقدم حياته كأنها مثالية ومليئة بالتفاصيل المغرية. بل الخلل فيمن يظنون أن هذا واقع وحقيقة، وأن البعض يعيش في جنات النعيم، مع كثير من المال، والوفرة، والصحة، والأبناء الصالحين والسعادة. فيدخل في جحيم المقارنة، والاستنقاص من الذات، والإحباط، ويسأل نفسه: أين الخلل؟ ما الذي فعله هؤلاء لكي ينعموا بكل هذا، ولم أنجح أنا في القيام به؟

مما يدفع المجتمع إلى الدخول في دوامة من المقارنات لا تنتهي، مقارنة مادية، وعائلية وشكلية وجمالية. ومنافسة غير مشروعة مبنية على التسابق إلى ما لا نهاية للحصول على سعادة امتلاك الأشياء، وهي عبارة عن لحظات عابرة من النشوة، تنتهي فور حصولك على الشيء لتبدأ السعي وراء شيء آخر. ليعاودك شعور النقص وعدم الكمال، وأمل الوصول لما يملكه الآخرون.

لقد اختلت موازين العالم بشكل غريب، وأصبحنا أشخاصًا استهلاكيين نبحث عن الرضى والسعادة من خلال امتلاك أشياء رأيناها عند البعض وحسبنا أنهم سعداء بفضلها، فبدأ الإقبال على القروض، والسعي وراء عمليات التجميل، والسفر لأماكن فارهة، واقتناء أشياء ثمينة، والهدف من كل هذا صور أو فيديوهات تساير بهم العالم الاستهلاكي وتثبت لهم أنك على خطى النجاح، من منظور العصر الحديث.

هل تساءلتم يومًا عن حقيقة السعادة التي تنقلها لكم الصور ومواقع التواصل؟

قبل أن تتساءل، توقف مع نفسك في لحظة تأمل، وتذكر أسعد اللحظات التي مرت عليك، سواء برفقة أشخاص تحبهم، أو في أماكن عشقت تفاصيلها، أو حتى لحظات أحدثت الفرق في حياتك. وستكتشف أمرًا غريبًا جدًّا، أن أغلب هذه اللحظات، غير موثقة لديك بصورة أو فيديو، ولأنك كنت سعيدًا ومستمتعًا بها، نسيت استخدام جهازك لتشارك بها الآخرين. بل عندما تكن مع أشخاص تحبهم فعلًا، وترتاح لرفقتهم، لا تحمل بين يديك جهازك، ليس فقط احترامًا لهم، بل لأنك تكتفي بهم وبالسعادة التي منحوك إياها، دون الحاجة لإخبار العالم بذلك.

فالحقيقة أن نشر اللحظات وعرض المقتنيات يمنحنا الجزء المفقود من الرضى عن النفس الذي نبحث عنه. فعن طريق إشراك العالم فيما نفعله أو بما نملكه، نحاول إقناع أنفسنا أننا مميزون وربما سعداء. فإعجابهم بما لدينا، يجعلنا نشعر أننا أفضل وأحسن منهم، فنرضي أنفسنا بمشاعرهم تجاه ما نملكه.

لهذا قد ترى البعض يركز على عالمه الموازي الذي خلقه عبر الشاشات أكثر من حياته الحقيقية، يلبس، يأكل، يسافر، يضحك، يحب، يتزوج، ينجب أطفالًا.. من أجل التصوير، بعد أن أصبح مدمنًا على إعجاب الناس بما يفعله؛ لأن هذا الإعجاب أصبح الشيء الوحيد الذي يمنحه الرضى عن النفس، ويقنعه بأنه الأفضل وأنه يملك أشياء يستحق الاهتمام بسببها.

ووسط كل هذا ينسى تمامًا أن يعيش لحظة واحدة حقيقية، يكون خلالها سعيدًا، بسبب ما يشعر به أو يفعله، دون تقييم الآخرين له ولما يملكه.

هذا النوع من الرضى المفقود ليس فقط في المظهر والشكل والمقتنيات، فهو كذلك في الأفكار والمبادئ والثقافة. فعندما تنشر موعظة أو نصيحة، وتحصل على تعليقات إطراء، هذا يجعلك تتوهم أنك أكثر حكمة من الآخرين، وأنك محط إعجاب واهتمام. فتبحث عن الكثير من المثالية لتقدمها للعالم، بغض النظر إذا كانت هذه شخصيتك، أم فقط شخصية تبنيتها لتلفت النظر إليك.

وضمن سياق المثالية، كان أحد المغردين المشهورين (على موقع التواصل الاجتماعي «تويتر»)، يأخذ من قضية المرأة موضوعًا للنقاش بشكل مستمر ليصبح نصيرها الأول على مواقع التواصل. ويخوض المناظرات والحوارات المطولة، ليثبت للعالم أن المرأة تحتاج إلى دعم أكبر في عالمنا العربي، وأن حقوقها مهضومة بسبب العادات والتقاليد التي حرمتها أبسط ما تستحقه.

وكان هذا المشهور يملك قوة إقناع كبيرة، لما يمتلكه من ثقافة وإلمام كبير بالموضوعات الذي يطرحها، بداية بمعلوماته الدينية، ثم المجتمعية، والثقافية والعلمية. وله قدرة على مواجهة من ينتقده ويهاجمه، بدعوى أنه ينشر الفساد، ويدعو إلى حرية المرأة، ذلك الصراع الأزلي الذي

يعيشه العالم العربي منذ زمن قاسم أمين، وكأننا لم نخطُ إلى الأمام حتى بربع خطوة حضارية.

ومن المتوقع طبعًا أن يملك هذا المشهور قاعدة جماهيرية نسائية واسعة، يكفي أنه يتحدث بلسانهن، ويقف في صفهن أمام أبناء جنسه. وهذا فعلًا ما كان يعيشه بطل مواقع التواصل، يستقبل رسائل الإطراء، وكلمات الإعجاب من هنا وهناك. وقد نجح ليكون فارس أحلام بعضهن، فيكفي أن هناك نساء يحلمن بمغنٍّ إذا أدى أغنية رومانسية لامرأة، فما بالك إذا دافع عنها وكتب عن حقوقها واحترامها بكتب ومقالات، وظهر في اللقاءات التلفزيونية ليطرح قضاياها الشائكة؟!

ولكن ذلك المشهور كان مبهم الأصل، لا يعرف أحد من أين أتى، ولا إلى من ينتمي، وكيف نشأ ليمتلك هذه الشخصية القوية التي تجعله ينجح في كل مواجهة. وكل المعلومات التي تنتشر عنه بسيطة رغم شهرته، مع تكتمه الكبير على حياته الشخصية، وغموضه في التعامل مع كل امرأة يلتقيها، فقط كان لطيفًا ودبلوماسيًّا.

وقد حاولت بعض من النساء في وسطه الثقافي والعلمي لفت نظره أكثر من مرة، لأنهن يعتقدن أن حضورهن الطاغي، وثقافتهن ومناصبهن المهمة قادرة على لفت نظر شخص مثله، يرى جمال المرأة في عقلها المتنور وثقافتها ومكانتها المجتمعية.

ولكن نصير المرأة المشهور كان يرفض أي محاولة تقرب منه، ويتحفظ في ردوده وتعامله مع المحيطات به. مما جعله موضع شك، بعد أن أثار فضول من حوله من النساء، وهو لا يعلم أن المرأة التي يدافع عن حقوقها باستماته إذا أثار شكوكها، فهو يضع نفسه أمام أكبر جهاز تقصي حقائق في العالم.

وفي يوم من الأيام، اجتمع فيها المشهور ببعض من زملائه وزميلاته في أحد المطاعم الفخمة، من أجل مناقشة مشروع «المرأة والمناصب السيادية» الذي يسعون إلى تقديمه للجهات العليا في أقرب وقت. كانت نورة إحدى الحاضرات في الاجتماع، ومهتمة بمعرفة ما يخفيه غموض المشهور، فلفت نظرها اهتمامه بالفتاة التي تُحضِر طلبات العشاء، وكيف يراقبها من بداية جلوسهم في المطعم، كما لم يراقب أنثى من قبل.

علمت نورة بفراستها الأنثوية أن المشهور سيسعى لمحادثة تلك العاملة في المطعم، وتُدعى سامية، فقررت أن تبدأ تحرياتها لكشف غموضه، فتوجهت خلسة عندها، وقالت لها أرغب في أن تتعاوني معي في شيء مهم، وأقنعتها بأن المشهور هو زوج إحدى صديقاتها، وهي ترغب في أن تكشف خيانته لها، وأعطتها رقم هاتفها وقالت لها: «إذا حدثكِ أو حاول التقرب منك، سايريه فيما يريده، وتواصلي معي أخبريني بالتفاصيل.. وإذا لم يحدثك، فسيكون شكنا ليس في محله».

ويبدو أن نورة تستحق لقب مخبر مع مرتبة شرف، فلم يخب ظنها، وفعلًا توجه المشهور عند سامية خلسة، وأبدى إعجابه بها وطلب رقم هاتفها، لتبدأ بينهما العلاقة التي كانت بمثابة الفخ. ولم تتأخر عاملة المطعم في التواصل مع نورة لتخبرها بكل جديد يدور بينها وبين المشهور.

بداية بكلمات الإعجاب التي ارتكزت بالدرجة الأولى على جمالها، وشكل جسدها وشعرها وعينيها.. وكانت نورة تسأل عن الحوارات التي تدور بين المشهور والعاملة، وتقول ربما انجذب

لها لأنها بسيطة، أو جذبه فيها حبها لعملها ومحاولتها إثبات نفسها في مجتمعها. ولكنها كانت تتفاجأ بالحوار السطحي والشهواني الذي كان يدور بين الطرفين، فكانت كل أسئلته عن جسدها، وعن العلاقات التي مرت بها، وكلمات غزل لا تخلو من الإباحية.

ولم تستوعب نورة ما علمت به، وكأنها تسمع عن شخص لم تعرفه ولم تقابله وتناقشه يومًا، ذلك الرجل الذي يدعي أن جمال المرأة في قوتها، وحضورها، وهو من يقف ضد كل شخص ينظر للمرأة نظرة شهوة، ويرى في هذا تحجيم وتقليل لمكانتها المهمة في المجتمع!

وبعد فترة بسيطة، تواصلت سامية مع نورة لتخبرها أن المشهور يرغب في لقائها بفندق، ولكنها امتنعت وأخبرته أنها لا تستطيع ذلك، فبدأ يغريها بالهدايا الثمينة، ويؤكد لها أنها ستكون سعيدة برفقته، ولن ينقصها أي شيء تحتاجه. بل قال لها إنه يحبها، ووقع في غرامها من أول نظرة في المطعم، ولا يستطيع الاستغناء عنها.

وطلبت نورة من سامية الاستمرار في تمثيلها، وقالت لها اطلبي منه أن يتزوجك إذا كان فعلًا يحبك كما يدعي، وقد تفاجأ المشهور بهذا الطلب لأنه كان يظن أن الإغراءات المادية قد تجعل سامية تتغاضى عن هذا الموضوع.

ولكنها اضطرته إلى الاستعانة بشخصيته على مواقع التواصل، ليأخذ منها بعض الشعارات ويضيف عليها أخرى لا يستطيع البوح بها أمام الملأ، فبدأ يقنع عاملة المطعم بأن مؤسسة الزواج شيء فاشل، ابتدعه البشر لتقييد أنفسهم، ولهدم معنى الحب بورقة لا تعني شيئًا، فالرابط بين العاشقين لا يحتاج إلى أوراق رسمية ولا إشهار، والمرأة الحرة التي تسعى لإثبات مكانتها ونجاحها في المجتمع لا تحتاج إلى ورقة تقيدها.

وما قاله المشهور عن فلسفته حول العلاقات لفتاة المطعم البسيطة لم تستوعب منه شيئًا، فقد أحست أن كلماته ربما مهمة ولكنها مبهمة بالنسبة لها، وتخالف الطبيعة البشرية والمجتمعية التي تعرفها.

ومن سوء حظ المشهور وحسن حظ سامية أنه خلال أحد الأيام الذي كانت ترافقه فيها التقت إحدى صديقاتها التي تعجبت من تواجدها معه، وسألتها ما الذي جمعك بهذا الشخص؟

قالت سامية: أعرفه من عملي، ويتقرب مني..

صديقتها: كيف يتقرب منك وهو متزوج، وأب لثلاث أبناء؟

سامية: كيف.. متزوج؟ ومن هي زوجته؟

صديقتها: متزوج من امرأة أعرفها تنتمي إلى أسرة محافظة جدًّا، وهو بدوره زوج شرس، منعها من إكمال دراستها والعمل ويرفض حتى خروجها من المنزل، بل أحيانًا يعتدي عليها بالضرب!!

سامية: هل أنت متأكدة أنه هذا الشخص، وليس أحد آخر؟

صديقتها: نعم هو الذي يظهر على وسائل التواصل والتلفزيون ليتحدث عن حقوق المرأة، ويستعين باسم مستعار لكي يظهر في الإعلام، ولا يعرف إلا قلة من الناس اسمه الحقيقي..

الجدير بالذكر، أننا نحن البشر خطاءون ولسنا مثاليين، وما يظهر على مواقع التواصل ليس حقيقتنا الكاملة، هو ربما فقط جانبنا المشرق أو ما نسعى لنكون عليه، نتجمَّل من أجل الإطراء.

وأحيانا ندَّعي أشياء لا نملكها، ولا نتفق معها، فقط ليصفق لنا العالم، أو ربما لنكسب بعض المال.. لذلك فمسرحية التواصل الاجتماعي، قد تكون جميلة ربما، وقد ننضم لأبطالها من أجل المتعة، ولكن يجب ألا نصدق كل ما يدور فيها من أحداث، فالواقع يتحدث لغة مختلفة.

☆ ☆ ☆

المرأة المستقلة ليست منحلّة.. ولكن!

هذه الأسئلة والسطور قد تكون موجهة للمرأة بالدرجة الأولى، وبالتحديد المرأة المستقلة التي بنت مستقبلًا بعيدًا عن ظل رجل، تعنيها أكثر من غيرها، لأنها ستضعها أمام مرآة الحقيقة التي تحتاج إلى الوقوف أمامها، لتعيد النظر في وضعها وفيما تسمعه ويُقال لها باستمرار..

هل سألتِ نفسك يومًا ما الذي أستحقه؟ هل ألقيت نظرة سريعة على ما تعلمته، وما تملكيه، والمكانة التي حققتها؟ هل تقيمين خبرات الحياة التي أصبحت تتمتعين بها؟ هل يسألونك باستمرار عن السبب وراء عدم ارتباطك برجل حتى الآن؟ هل تشعرين بالإحراج لأنك وحيدة، وتشعرين بالإحباط لأنك تستقبلين عروضًا تنتقص من قيمتك، ورغم ذلك تفكرين في القبول بها؟

مما لا شك فيه أن هناك فئة كبيرة من النساء يعشن حياة مستقلة يعتمدن فيها على أنفسهن. وقد يكون هذا الواقع اختياريًّا تبنته المرأة بقناعة تامة لأسبابها الخاصة، كعدم قدرتها على معاشرة رجل، أو لأسباب نفسية رافقتها منذ الطفولة، أو حتى لعدم رغبتها في تحمل مسئولية تكوين أسرة. وكذلك قد يكون هذا الوضع إجباريًّا لم تختره المرأة بمحض إرادتها، وفرضته عليها ظروف الحياة، كعدم لقائها بالشخص المناسب لتكمل معه حياتها، أو لظروف عائلية أو عملية أو حتى صحية..

والأكيد أن كل امرأة لها أسبابها الخاصة في اختيارها لإكمال مشوار حياتها وحيدة، أسباب لا يقدرها المجتمع ولا يحترمها، ويرى أنها خارجة عن النطاق الطبيعي والفطري. بل ويشهر سلاح الانتقاد وإلقاء الأحكام في وجه أي امرأة مستقلة، حتى دون أن يفكر في الأسباب الذي دفعتها إلى ذلك.

ويغضون الطرف عن التغيرات القاسية التي يعيشها العالم بين ظروف اقتصادية منعت الشباب من الإقبال على الزواج وأوضاع اجتماعية تحرم الجيل الجديد من اختيار حياته بالشكل الذي يليق به، وتغير ثقافي وعلمي وتكنولوجي، بل وتأثير العولمة التي أدت إلى اختلال في موازين العلاقات وشكلها بصفة عامة.

لا يعلمون أن سيرورة الحياة التي استمرت لقرون، والمبنية على ثلاث ركائز: النشأة، التكاثر، الوفاة.. قد بدأت تتغير بفضل الظروف الذي يعيشها العالم، وقد أصابها خلل بسبب ما نمر به من تزايد في عدد السكان والأزمات والطفرات.. مما أدى إلى كسر القواعد. فبعد النشأة أصبح الإنسان مطالبًا بالعمل والجد والكد والمجهود المضاعف لإثبات وجوده، لتأتي مرحلة الشراكة والإنجاب، في وقت متأخر مما كانت تأتي عليه سابقًا، كما أنها تبقى مرهونة بظروف كثيرة، وقد لا تأتي أبدًا. فهذا هو الواقع الجديد الذي يصعب على البعض التكيف معه بشكل أو بآخر.

وطبعًا كل ما قيل لن تستطيع أي امرأة أن تقنع به أي شخص بسيط يسألها: «لماذا لم تتزوجي؟»، وتخوض معه في نقاش تؤكد من خلاله أن السبب وراء عدم زواجها هو أزمة المناخ، وارتفاع أسعار البترول والذهب، والعولمة.. لأنه بالأساس وقبل السؤال كان قد جهز مجموعة من الأحكام السطحية المسبقة عليها، مفادها أنها سعيدة بالحرية التي تعيشها، وبدوره يرى الحرية هي الانحلال، وأن مطالبها في الزواج مبنية على الماديات، وأحيانًا يتهمون العلم والثقافة

بأنهما السبب في تدمير مبادئها وأفكارها، وخروجها عن نطاق التفكير السائد.

والأغرب من ذلك، هو التعامل مع المرأة على أنها بمثابة السلعة التي إذا تم تخزينها لفترة طويلة تصبح غير صالحة للاستهلاك. ولم أستوعب يومًا هذا المبدأ الذي يقيم أي إنسان بفترة وحدته، تلك الفترة التي يكتسب فيها الكثير من خبرات الحياة، ويصبح ناضجًا أكثر لينجح في مواجهة المصاعب. بل وتصبح المرأة فيها أكثر قابلية لبناء أسرة مستقرة، وتربية الأبناء بالشكل الصحيح، يكفي أنها اكتسبت صلابة وقوة بعد اعتمادها على نفسها لفترة طويلة.

وفي المقابل، يتم تقديس الرجل مع مرور الزمن وكأنه قطعة أثرية نادرة تزيد أهميتها مع الوقت. بل ولا يعيبه ولا ينقصه شيء، وتبقى تطلعاته هي نفسها التي كانت معه في العشرينات إلى أن يصل للسبعينات من عمره.

وبإمكانه طلب الارتباط بأي امرأة، حتى وإن كانت في سن صغيرة، فقط لأنه رجل لا يعيبه شيء!

قد يقول البعض إن السبب وراء هذه المعتقدات هو بنية المرأة الجسدية، واختلافها عن بنية الرجل. ولكن الحكمة الإلهية جعلت العالم قادرًا على مواكبة العصر الذي تغيرت فيه كل المُسلَّمات، وأصبح التطور العلمي يساند البشر، ليواكبوا الخلل الحاصل في المنظومة البشرية. اليوم أصبحت المرأة قادرة على تجميد بويضاتها، والإنجاب في سن أكبر، بل والمحافظة على شبابها ورونقها بطرق طبية بسيطة. ففي زمننا الحالي ليس هناك مجال للتقليل من قيمة المرأة، فقط لأنها أصبحت أكبر سنًّا!

وما يثير الغرابة فعلًا أن البعض قد يساوي بين امرأة قوية، متعلمة، مثقفة، ذات خبرة حياتية كبيرة، برجل بسيط، فقط لأنه يحمل في مسماه الجنسي ذكر.

وهذا ما يتعرَّض له الكثير من النساء الناجحات اللواتي بنين طريقهن بمشقة، وأثبتن تواجدهن في مجالات مهمة ومختلفة بمجهود كبير، وحُرِمن أشياء كثيرة في الحياة ليصلن لما هن عليه اليوم. وفجأة يصبن بخيبة أمل، وصدمة مفاجئة عندما يقابلن شخصًا أقل وأبسط منهن بكثير على جميع المستويات، ويحمل قدرًا كافيًا من الجرأة ليساوي نفسه بهن، فقط لأنه رجل!

تحدثني علياء عما تصادفه في حياتها بشكل يومي من قصص غريبة، وقد تكون مضحكة أحيانًا، فقط لأنها أشرفت على سن ال ٣٦ ولم تتزوج بعد، وبكل بساطة هي لم تجد حتى الآن الشخص الذي تشعر أنه سيسعدها، أو تستطع إكمال حياتها معه بالشكل الذي تحلم به، وهذا حقها الطبيعي، وليس من حق أي شخص التدخل لإسقاطه عنها. وهي ليست مستعدة أن تضحي بما حلمت به وتمنته، فقط لتحصل على لقب يرضي المجتمع.

والغريب في الأمر أن علياء التي أصبحت تعتلي أحد أهم المناصب في بلادها، وتتمتع بقدر كبير من العلم والثقافة، واستطاعت أن تحقق نجاحًا كبيرًا يشهد لها به عالميًّا، لا زال مجتمعها يصنفها كامرأة غير متزوجة فقط، ويتناسى كل ما حققته في حياتها، وتعبت لأجله. ولا زال يصفها ب. «المسكينة» في كل التجمعات العائلية، أو يسأل والدتها بشفقة عن وضعها. مع أنها لا تشعر بذلك البؤس الذي يصفها الناس به، بل ممتنة لنجاحها، وفخورة بما حققته في حياتها حتى الآن.

ومما لا شك فيه طبعًا، أن علياء تشعر بالوحدة أحيانًا وتتمنى لو أنها مع شريك حياة يقدرها،

وتشارك معه حياتها واهتماماتها، ولكن هذا الشعور الطبيعي، لا يعني أنها بئيسة أو فاشلة. فهي على يقين تام أن شراكة الحياة يجب أن تكون مبنية على أساس صحيح، من أجل الاستمرارية، وما تصادفه من عروض تصفها بالمهينة، لا يناسبها ولن تقبله لإرضاء الناس على حسابها الشخصي.

فللأسف في مجتمعاتنا عندما تتعدى المرأة سنًّا معينة تدخل في مساومات غريبة من أجل الزواج، دائمًا هناك من يساومها ليشارك معها الحياة. بين من يطلب منها الاستغناء عن حياتها العملية التي تعبت لتنجح فيها، أو من يطلب المشاركة المادية غير المنصفة التي تقوم على تنازل المرأة عن كل حقوقها، بل والمساهمة بدخلها الكامل في بناء الأسرة، أو من يطلب منها عدم الإعلان عن الارتباط والاكتفاء بأوراق سرية.. كلها طلبات مشروطة فيها نوع من الابتزاز، فلكي تحصلي على أبناء وعائلة ولقب مجتمعي، أنت مطالبة بالتنازل في كل الأحوال.

تحكي علياء عن نقاش دار بينها وبين أحد الأشخاص، والذي وصفته بأنه يعتد بكونه رجلًا، وقد يمثل هذا الحوار الذي دار بينهما وضعًا شائعًا في المجتمعات العربية، وتفكيرًا قد يكون سائدًا ويعتنقه الأغلبية..

يسألها: لماذا لم تتزوجي لحد اليوم؟

تجيب: لأنني لم أجد الشخص المناسب الذي يستحق أن أكمل معه حياتي..

يقول: وما مواصفات هذا الشخص الذي قضيت ال٣٦ عامًا تبحثين عنه ولم تجديه؟

تجيب: مبدئيًّا أنا لم أقض ال٣٦ عاما أبحث عن شريك، لأن حياتي مليئة بالعمل والإنجازات، ولقائي بالأشخاص دائمًا صدفة، ولا أملك شروطًا أو مواصفات معينة، فقط أريد رجلًا يتقبلني مثل ما أنا دون شروط أو تنازلات، ومستوانا الفكري يجب أن يكون متقاربًا.

يقول: وأين الضرر لو كان الشريك أقل منك؟

تجيب: الضرر أننا سنواجه مشاكل في وجهات النظر، وقد لا يتقبل أفكاري، وقد يشعر بالنقص أمامي.. وقد نعيش في صراع دائم، يدمر معنى الشراكة الحقيقية..

يقول: هل تعلمين لماذا وُجدنا في هذه الحياة؟

تجيب: الأهداف قد تختلف من شخص لآخر..

يقول: لا طبعًا.. كلنا خلقنا لنعمر الأرض، لنتزاوج وننجب أطفالًا..

تجيب: وهل ترى أن الأرض تعاني من فراغ في وقتنا الحالي ينتظر من يعمره؟

يقول: نعم.. تعمير الأرض هو رسالتنا، فمهما علا شأنك، وتطور عملك، فلقد جئتِ إلى هذا العالم لكي تنجبي أطفالًا.

تجيب: من وجهة نظري، تعمير الأرض قد يختلف في تعريفه، ولا يتوقف على الإنجاب، فهناك من يعمر الأرض بأعماله لخدمة البشرية، فالطبيب يعمر الأرض، والمعلم والمهندس والعالِم.. كلهم يعمرون الأرض بإنجازاتهم..

يقول: ولكن الذرية هي الهدف الأسمى دائمًا.

تجيب: أنا على يقين أن الله خلقنا ووزع علينا المهام المختلفة، هناك من أنعم عليه بالذرية والعائلة، وهناك من أنعم عليه بالنجاح والعمل وحرمه الذرية، وتختلف النعم والهدف واحد تعمير الأرض بالصلاح والفلاح..

يقول: من أول الزمن، دور المرأة مرتبط بالبيت والأولاد، لماذا تسعون لتغيير هذا؟

تجيب: ولماذا ترغبون في تطبيق مبادئ أول الزمن في آخر الزمن؟ العالم كله تغير، الحياة أصبحت مختلفة كليًا عما سبق، لماذا تؤمنون بتغيير كل شيء، ولكن ترفضون تغيير وضع المرأة وتطورها؟

يقول: أنتن المتحررات غيرتن مبادئ الحياة.

تجيب: مع تحفظي على كلمة متحررات، ولا أعلم ما الذي تعنيه بها، ولكن إن كنت ألقب بمتحررة لأني أعتمد على نفسي، وأبني حياتي بمجهودي فهذا لا يضرني ولا ينقص من أهميتي.. أما عن تغير منظومة الحياة فلا أظن أن النساء سبب في الأزمات الاقتصادية، والصراعات العالمية، والطفرة التكنولوجية.. هذه كلها أسباب جعلت الحياة تختلف عما عاشته جدتي وجدتك..

يقول: جداتنا كان يقدسن الأسرة، وكانت هي أولويتهن الوحيدة، فأعطونا جيلًا صالحًا، لو استمر الحال نفسه كنا بخير..

تجيب: في زمن أجدادنا كان بناء الأسرة أكثر بساطة من اليوم، وكان الرجل قادرًا على تحمل مسئولية بيته دون مساعدة الزوجة في الإنفاق، كما أن تربية الأطفال كانت بسيطة، لا تعتمد على كثرة الماديات، وعلى التكنولوجيا المفرطة.. فهل تستطيع اليوم أم غير متعلمة أن تواكب تربية أبنائها بالشكل الصحيح؟

يقول: ولكنكن أصبحتن متطلبات..

تجيب: لسنا متطلبات، ولكن ربما واعيات أكثر، لا نرضى بأنصاف الحلول.. نتشارك معكم المسئولية كاملة، لهذا من حقنا عليكم التقدير، وأن تعتبرونا شركاء وليس مملوكين، فالعلم والنجاح للمرأة استثمار قادر على إنشاء أسرة واعية، وأبناء مميزين، وليس كما تظنون أنه يجعل المرأة متمردة..

يقول: ولكن بالفطرة الرجل أقوى من المرأة، ويجب أن تكون خاضعة له..

تجيب: بالفطرة المرأة شريكة الرجل وليس خاضعة له، تجد معه الأمان وتنشد برفقته الاستقرار، وكل هذا يجب أن يكون نابعًا من الحب وليس من الخوف.. فهي تستفيد من قوته لحمايتها، وهو يستفيد من وجودها لمساندته..

يقول: حتى وإن كانوا شركاء، فالحقيقة أن المرأة لا تستطيع أن تعيش بدون رجل..

تجيب: وهل يستطيع الرجل أن يأتي إلى الحياة بدون امرأة في الأصل؟ ينشأ على يد أمه، ويتعلم على يدها.. تساعده أخته، تؤازره خالته وعمته، وتبقى حياته مرتبطة بالمرأة لآخر يوم في حياته، وحتى إن فضل أن يعيش دون ارتباط، يختار العلاقات العابرة، لتؤنسه وليملأ نصفه الآخر المفقود..

يقول: وماذا تفعل المرأة إذا كانت وحيدة؟

تجيب: قد تدخل في علاقات بحثًا عن الأمان، فدائمًا المرأة تبحث عن الاستقرار.. عكس الرجل الذي يفضل غالبًا أن يعيش اللحظة دون أي التزامات مستقبلية..

وقد طال الحوار بين علياء وذلك الرجل الذي تحفظت على ذكر اسمه، ولكن بالمختصر هذا حوار طبيعي وتقليدي بين آدم وحواء في العالم العربي، واستجواب مليء بالأحكام والاتهامات الموجهة لأي امرأة اختارت أن تكون ناجحة بوحدتها، وأعطت لنفسها فرصة لتختار ما يناسبها أكثر، ولم تسعَ وراء الارتباط فقط من أجل اللقب، لأنها تؤمن بأن تكوين الأسرة أمر مهم، يجب أن يعطى حقه الكامل من الدراسة والتفكير، لكي يكون بالشكل الصحيح.

في عالمنا الحالي، أصبح من الضروري أن تبني المرأة لنفسها جدارًا صلبًا تتكئ عليه قبل الإقبال على خطوة الارتباط. وهذا الجدار هو مخزونها من العلم والمعرفة والثقافة، لكي تكون قادرة على مواجهة متغيرات الحياة.

وتكون مسئولة على بناء أسرة ناجحة. فإذا تأخر القطار الذي سينقلها إلى بر الزواج، فيجب ألا تقف تنتظره وهي مستسلمة، بل عليها أن تعمل وتتطور لتصبح قادرة على شراء تذكرة في درجة رجال الأعمال في القطار، بدل الدرجة الاقتصادية، أو حتى تستقل طائرة بدل القطار.

☆ ☆ ☆

من ليس له ماضٍ.. قد يكون له حاضر ومستقبل

هل شعرت يومًا أن لعنة التاريخ تلاحقك لتنغص حاضرك ومستقبلك؟ أو خضعت لتقييم غير عادل، بناه الآخرون على ماضي أجدادك الذين لم ترهم يومًا؟ هل صاحبت المتشدقين الذين يتغنون بالتاريخ بشكل مستمر، دون أي لمحة على حاضرهم المبهم؟ أم حضرت مجالس الوقوف على الأطلال الذي تخلد الماضي السحيق، وتغفل الحاضر المفقود؟

مما لا شك فيه أن الشعوب العربية هي الأكثر تقديسًا للتاريخ من غيرها، فيكفي أننا نشهد حروبًا ومشادات ومواقف معادية ومضادة لأسباب قد حدثت منذ مئات السنين. صراعات لا يستوعبها العقل السليم، من أجيال تشبعت بالعلم والثقافة، وواكبت تطور العالم وحضارته، وهي لازالت تشهر سلاح الخلاف في وجه بعضها البعض بالاستعانة بوسائل العصر الحديث لتتصارع بسبب عراك حدث قبل ألف سنة!!

يُصاب العالم باللعنة عندما تُوَرث المجتمعات ثقافة الثأر والانتقام والكراهية، بدعوى أن من ليس له ماضٍ ليس له حاضر. مع أن صناع نجاح الماضي رحلوا، والعالم في حاجة لبناء حاضر ومستقبل بأيادٍ جديدة تؤمن بما بين يديها، وليس بما كان بين أيدي أسلافها. والغريب فعلًا هو تقييم الناس لبعضهم بتاريخ من سبقهم، وقد تصدمك جمل مريبة أحيانًا، فتجد شخصًا يقول فلان ليس محل ثقة، فكبير قبيلتهم قبل ١٠٠ عام كان معروفًا بخيانة العهد!

حتى علميًّا لم يظهر حتى الآن جين الخيانة الذي يظل ثابتًا في جينات الإنسان، فكيف لشخص أن يحاسب بسبب ما اقترفه جده الأكبر قبل ١٠٠ عام؟!

وتتوالى الأحداث الغريبة المرفقة بالصراعات القائمة على تقديس ما مضى، بل لحد الآن هناك أشخاص يظنون أن نسلهم صافٍ ومقدس، ولا يريدون اختلاطه بأي نسل آخر. وكأن الله خلق البشر وفضلهم بعرقهم بدل أعمالهم. وقد لا يعلمون أن ما شهده العالم من تغيرات، وتطورات يستحيل أن يكون على وجه الأرض نسل صافٍ، ومن يطلع على نتائج فحص الحمض النووي الذي يقوم بها البعض مؤخرًا، سيصدم من خليط الأعراق الذي يتوهم البعض أنه صافٍ.

وحتى إن كان بالفعل هذا النسل صافيًا، فما فائدته إذا لم تعمل لحاضرك ومستقبلك؟ وما فائدة تلك القصص الذي يحيكها البعض عن بطولات أجدادهم في الحروب، وحكمتهم في حل المشكلات، ونصرتهم للقبيلة؟ ما الفائدة إذا لم تستمر على نهجهم الحسن في العمل وليس في سرد القصص؟ لماذا لا نسمع قصص حاضرك؟ وهل نجحت في التشييد والبناء والعلم ونصرة الإنسانية؟ أم لازلت تفرق بين هذا وذاك بسبب عرقه وأصله؟ بل وقد ترفض التعاون مع البعض لأنهم مختلفون عنك، وقد تقصد مساندة أشخاص رغم عدم استحقاقهم، فقط لأن جدهم الأكبر كان مسانِدًا لابن عم جدك الأول.

إن الماضي مهما كان بعيدًا أو قريبًا يبقى تجربة قابلة للإصلاح مع مرور الزمن، والتطور صفة بشرية وهبنا الله إياها، لا يمكن التنصل منها بالولاء التام لما مضى. وحتى الأخطاء قد تكون قابلة للإصلاح بدون المحاسبة المستمرة التي تورث عبر الأجيال. فإذا كان الله غفورًا رحيمًا فما

بال البشر يلاحق بعضه بقصص لا يملكون حتى الدليل القاطع على صحتها؟ ويحرصون على وضع أنفسهم في خانة يدعون أنها مميزة، مع أن الناس كلهم سواسية، ولا تميزهم إلا أعمالهم!

قد يخلط البعض بين تقديس قصص الماضي والدين، ولكن النصوص الدينية واضحة في معانيها، ولم تدعُ يومًا للتفرقة بين البشر بسبب أعراقهم، أو حتى تدعو إلى تقديس التاريخ، والعيش على أطلاله، بعيدًا عن العمل والسعي في الحياة. فما يحدث غالبًا هو الخلط بين الدين والتقاليد، والفرق كبير بين الاثنين، فهذه الأخيرة قد تكون مبنية على مبادئ خاطئة حتى قبل ظهور الأديان، بل إن الأديان سعت لتغييرها لأنها من صنع البشر الخطائين.

وما يثير الدهشة فعلًا أن هناك عائلات تعيش صراعات لا تنتهي بسبب العرق والقبلية، والتاريخ والماضي. ويتعاملون مع الأمر على أنه من المسلمات الواجب التأقلم معها، ولا مجال فيها للنقاش أو الشك. فهذا ما جناه عليهم أبوهم وعمهم وجدهم الأصغر وجدهم الأكبر.. ليضيق عليهم خناق الحياة، ويمنعهم من التجانس والتواصل مع بشر يشبهونهم في كل شيء، إلا في الاسم الثاني في البطاقة الشخصية!

تحدثني فاطمة عن عائلتها التي تحترم كل البشر كما تدَّعي، ولكن أبناءها يُمنع عليهم الاختلاط أو الزواج من أي عائلة لا تحمل نفس مسماهم القبلي. فهذا ما توارثوه، وما نشئوا عليه، ولا يحق لهم حتى مناقشته أو التشكيك في صحته. فالعرف في محيطهم يتساوى بالدين، يجب احترامه وتطبيقه، بل وتقديسه، وتسليم مشعله من جيل لآخر.

وكانت فاطمة تتحدث عن هذا الأمر بنوع من الاستهجان، وهي مستغربة كيف خضع إخوانها وأخواتها ممن تلقوا العلم في أهم الجامعات وحصلوا على مناصب عليا لهذا العرف وطبقوه بدون أي نقاش. بل يفتخرون به في المجالس، وهم يتحدثون عن بطولات أجدادهم، ونسلهم الصافي الذي لا يختلط بأشخاص خارج القبيلة، فالأولوية من وجهة نظرهم لمن يشبههم، لأنهم مميزون، كما قالت لهم الأسطورة وأوهمهم التاريخ!

وبعد أن تخصصت فاطمة في مجال الطب، وبالتحديد الأمراض الوراثية، كانت من الأصوات المتمردة القليلة بين أهلها التي تدافع باستماتة عن ضرورة التجانس من أشخاص خارج إطار القرابة أو حتى القبيلة؛ لأن العِلم الذي بين يديها يضرب بعرض الحائط كلما نشأت عليه، حول تقديس التاريخ القبلي، وصفاء النسل الذي يجب ألا يختلط. وقد أصبحت ترى أن أسرتها مجال خصب لتوارث الأمراض، بل وتطورها، وهذا فعلًا ما بدأ يظهر في أطفالهم، من مرض الثلاسيميا (مرض في الدم)، إلى بعض أنواع الإعاقة والسمنة.. وغيرهما.

فصفاء العرق لا يعني بالضرورة توارث الأمجاد والبطولات والصفات الحميدة، ولكنه قد يكون سببًا في توارث ما يدمر مواليد جددًا بأمراض خطيرة، وهذا ما كانت تقوله فاطمة لعائلتها دائمًا، وأسرتها الصغيرة التي بدأت تقتنع بهذا الحديث بعد أن شاهدوا ما حولهم من بعض التجارب غير الموفقة، بل والتعيسة أحيانًا. ولكن تأييدهم يبقى سريًّا، لكيلا يخوضوا في جدال واسع مع الأهل الذين يتكئون على شجرة العائلة الممتدة إلى الأصل العريق.

ولكن هذا الأمر لن يبقى طي الكتمان، خاصة عندما قررت فاطمة الارتباط بزميلها في العمل الدكتور محمود، الشاب الخلوق والراقي الذي يحمل كل الصفات التي تتمناها العائلات لبناتهن، ولكنه لا ينتمي إلى قبيلة فاطمة، ولا حتى إلى مدينتها، بل هو نتاج خليط بين جنسيتين

مختلفتين. فوالده تحدى الأعراف يومًا وتزوج بأجنبية (غريبة عن بلده)، وعاش حياة مستقرة معها، ولكن الصراع مع أسرته وعائلته كان كبيرًا وممتدًّا، وحتى نشأة أبنائه كانت لا تخلو من التفرقة، لأنهم يُنعتون دائمًا بأبناء الأجنبية.

فاطمة بدورها قررت أن تخوض التحدي لأن سلاحها علمي، وتستطيع أن تواجه به أي شخص ينتقدها، أما محمود فرغم قناعته التامة بما يقبل عليه، إلا أنه كان يشعر أحيانًا بالتردد كلما تذكر ما عانته والدته بعد زواجها بوالده، وما عانه هو وإخوانه في طفولتهم مع العائلة.

وكانت عائلة فاطمة قد صعقتها الصدمة عندما أخبرتهم أن محمود سيأتي لخطبتها وهي موافقة، ولن تتقبل أي رفض من طرفهم، لأن الشاب ممتاز وهي مقتنعة به، وطلبت منهم عن طريق التهديد ألا يقفوا في وجه سعادتها لأنها تستطيع أن تتصرف بشكل فيه تحدٍّ أكبر، كونها لم تعد قاصرًا وتملك الأحقية في التصرف وتقرير مستقبلها. والأسرة بدورها حاولت أن تتقبل الأمر، ولكن همها الأكبر: كيف سيواجهون العائلة بهذا القرار؟ ما الذي سيقولونه عن كسر الموروث الذي يقدسونه؟ وهل سيتقبلون ذلك؟ أم أن الأمر أكبر من استيعابهم؟

استقبلت الأسرة محمود وعائلته في سرية تامة لإرضاء فاطمة من جهة، ومحاولة منهم لإيجاد أي عيب يمكنهم من خلاله رفض هذا الزواج تفاديًا لمواجهة العائلة. ولكن لسوء حظهم كان الشاب خلوقًا وابن أسرة كريمة وميسورًا، ولا يتخلله أي عيب يدفعهم لرفض هذا الارتباط. فاضطروا إلى القبول، وإلى مساندة ابنتهم أمام العائلة، والاستعداد للمواجهة حتى وإن كلفهم الأمر كثيرًا.

وما إن تم الإعلان عن خطبة فاطمة ومعرفة أن الخاطب ليس من نفس الأصول القبلية، حتى انهالت على الأسرة الانتقادات، والاتصالات المطولة التي تستفسر كيف فعلتم ذلك؟ ولماذا؟ وهل أنتم قادرون على كسر العرف الذي نشأتم عليه؟

كانت أم فاطمة تكتفي بكلمة «قسمة ونصيب»، ووالدها يدافع عن زوج ابنته كونه ابنًا خلوقًا ومتدينًا، ولم يجد فيه عيبًا، مستعينًا بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إن لم تفعلوا تكن فتنة وفساد عريض». ورغم ذلك لم يسلموا من أحكام وجهاء العائلة الذين قرروا أن يجتمعوا ليزوروا أبو فاطمة ويحدثوه في الأمر.

استقبل أبو فاطمة وجهاء العائلة في بيته وهو يعلم تمامًا السبب الذي جاء بهم، وكان ينتظر سماع تلك الخطبة المليئة بالتوبيخ، ودرس التاريخ والوقوف على بطولة وأمجاد الأجداد، وكيف أنهم سلالة شريفة ونادرة، ويجب ألا تخرج عن العرف بالتجانس مع العائلات الأخرى. وفعلًا كل ما توقعه كان في محله، وهذا ما سمعه منهم مع بعض الإضافات التي زادته توترًا.

ولكن أبو فاطمة لم يتوقع أن يعزز وجهاء العائلة تواجدهم بإحضار قائمة ضمت أسماء لشباب العائلة، وعرضوها على الأب ليختار لابنته منها الزوج المناسب، وكأنه يختار طبقه المفضل ليأكله خلال وجبة العشاء. وقال كبيرهم: «إليك هذه القائمة، اختر ما يناسبك ويناسب ابنتك، كلهم أبناؤنا ومن العائلة ومن القبيلة، وهم الأحق بالزواج من ابنتنا أكثر من الغريب الذي لا نعرفه».

وضعت هذه القائمة أبو فاطمة في مأزق بين رغبة ابنته وضغط العائلة الذي لا ينتهي، فبدأ يبحث عن مخرج من هذه الورطة التي لم يعمل حسابها، وهو يعلم تمامًا إذا قال لهم إنه يريد

استشارة فاطمة لأنها المعنية بالأمر، سيوبخونه على هذا القول ويقولون له متى كنا نستشير النساء فيما نقبل عليه؟ وهل الأبناء يعرفون مصلحتهم أكثر من آبائهم؟

فبدأ يبحث عن مخرج يتقبلونه، وفي نفس الوقت لا يغضب ابنته، فحمل بين يديه الورقة وبدأ يقرأ الأسماء، فقال لهم: مع احترامي لأبنائنا، ولكن هؤلاء أغلبهم لم يكمل دراسته، أو حتى وظائفهم متوسطة، وأنا ابنتي دكتورة متخصصة، فليس هناك تكافؤ. فتدخل أحد أبناء عم فاطمة وقال: الحقيقة يا عمي أنت اقترفت خطأ كبيرًا في السماح لابنتك بدراسة الطب، لأنها تختلط بالرجال في هذه الوظيفة.. وكان يجب أن تكتفي بمدرسة المعلمات، وفي كل الأحوال المرأة مكانها البيت وتربية الأولاد..

ولكن أبو فاطمة رغم أنه وفيٌّ للقبلية لكنه لم يرضَ بالتعليق الذي سمعه، ورد بكل حسم: ابنتي أحسنتُ تربيتها، وأعلم مدى حرصها على سمعتها، ومهنتها إنسانية بالدرجة الأولى، ولا يعنيني إذا أنتم فشلتم في دراساتكم، وتريدون كسر طموح ابنتي لتتساوى بفشلكم.

وجاء هذا الرد بمثابة الصدمة لوجهاء العائلة الذين قرروا الانسحاب من بيت أبو فاطمة مهددين أنهم لن تطأ قدمهم بيته، ولن يحضروا عرس ابنته إذا تزوجت بالغريب. وأنه سيكون قد أعلن التمرد إذا وافق على هذا الزواج، وسيبقى مغضوبًا عليه إلى الأبد.

وُضِع أبو فاطمة بين خيارين، كلاهما صعب، الأول: كسر فرحة ابنته وإرغامها على الزواج بشاب من العائلة، حتى وإن كان أقل منها شأنًا، وكانت لا تريده. والخيار الثاني: أن يتحدى العائلة، ويزوج ابنته للدكتور محمود، وحينها يجب أن يستعد للحرب الطويلة الأمد، ومقاطعة الأهل، والتخلي عن تواجدهم وتواصلهم.

وجلس أبو فاطمة مع ابنته، وحدثها بواقعية، وقال لها: أنا لا أريد أن أحرمكِ فرحتك، أو أحكم عليك بالتعاسة طيلة حياتك، لأني أفتخر بك وبما وصلت له في مجالك العلمي والدراسي، فنحن في زمن نتعلم من أبنائنا كما علمناهم وهم صغارًا.. ولقد استفدنا منك ومن علمك الكثير. ولكن في نفس الوقت أريد أن أقول لك: إذا اخترت الزواج بمحمود يا ابنتي فاستعدي إلى بعض التضحيات والمضايقات التي ستواجهك، فهذه عائلتنا وهذا مجتمعنا للأسف.

وأضاف أبو فاطمة: أول تحدٍّ يجب أن تتخلي عن حفل الزفاف الكبير الذي طالما حلمت به، لأن العائلة سترفض الحضور. وأن تكوني مستعدة أن تسمعي كلمات جارحة أحيانًا خلال التجمعات العائلية، كما أن أبناءك في المستقبل كذلك قد يواجهون بعض المضايقات.. ونأمل من الله أن تتطور ثقافة وعقلية عائلتنا، مثلما تطور كل شيء في هذا العالم من حولنا..

وحسمت فاطمة موقفها وحوارها مع والدها، وقالت له: كل تغيير في هذا العالم يحتاج إلى تضحيات، ما بالك بتغيير مسلمات نشأ عليها البعض من قرون، ولو كانت هذه المسلمات صحيحة أو فيها أي مصلحة لم أكن لأرفضها أو أقف ضدها.. ولكننا يا أبي في زمن العقل والعلم، وسيحاسبنا الله إذا لم نستخدم عقولنا وكل ما سخره لنا من تطور. سأخوض التحدي، وسأعلم أبنائي أن يكونوا شجعانًا في مواقفهم، ويتسلحون بالعلم في مواجهتهم، وستكون أول آية ألقنهم إياها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (13)﴾ (صدق الله العظيم).

(سورة الحجرات – الآية ١٣)

☆ ☆ ☆

أتخطى الصِّعاب.. بحكمة أمي

هل راقبت يومًا ردود أفعالك تجاه المواقف الصعبة التي تواجهك؟ كيف وجدتها؟ هل أنت ممن يصرخون، أم من ينهارون، أم يصمتون؟

ألقِ نظرة سريعة على الأحداث التي واجهتك، أو حتى بعض الحوادث والمشاكل، وتذكر كيف كان رد فعلك تجاهها، وهل قوة تحملك كانت عالية، أم فقدت الوعي أمام أول صدمة؟ وهل فعلًا المشاكل الذي رفعت صوتك في وجهها، وغضبت وتوترت وانفعلت بسببها كانت تستحق كل ذلك؟

أستغرب كثيرًا عندما أرى امرأة تصرخ أمام «الصرصور» تلك الحشرة الصغيرة، وبعضهن يبكين من الهلع، حقيقة هو مخلوق مقزز، ولكن الوضع لا يدعو للانهيار في حضرته. بل إنه كائن صغير جدًّا، لا يملك أي قوة خارقة لينقض عليهن بها، وكل امرأة قادرة أن تواجهه بأبسط وسيلة، كحذائها مثلًا. وهذا الموقف هو بمثابة المثال المبسط لردود أفعال بعض البشر أمام العديد من المواقف.

فقد تكون من الناس الذين يصرخون وينهارون أمام أشياء لو دققت في تفاصيلها لوجدتها أشبه بالصرصور، صغيرة ولكنها تبدو مخيفة نوعًا ما، وإذا أعطيت لنفسك مهلة للتفكير مرفقة بقليل من الهدوء، ستكتشف أن سلاحك تنتعله في رجليك وأنت قادر على المواجهة بل والنجاح. وغالبًا ما تكون ردود الأفعال المبالغ فيها، صفة بشرية موروَّثة، يكتسبها الطفل منذ نعومة أظافره، عندما يرى والدته تصرخ على أتفه وأبسط الأمور، وتبرحه ضربًا إذا اقترف أي نوع من الأخطاء البسيطة، فينشأ شخص يُبالغ في ردود الأفعال، غير قادر على المواجهة العقلانية.

أعتبر نفسي محظوظة جدًّا، لأني نشأت في أسرة لا تمارس المبالغة في ردود الأفعال بأي شكل من الأشكال، بل ومنذ صغري كنت أستغرب من ردود أفعال أمي تجاه بعض الأمور، ومع الوقت اكتشفت أنها حكمة في التصرف قبل كل شيء، وكنت أسألها مرارًا من أين لكِ بهذا الثبات؟ وكانت تقول: «أريدكم أن تكونوا أكثر ثباتًا وحكمة مني، وأن تكتسبوا هذه الصفة منذ صغركم، لكيلا تهدروا الكثير من حياتكم، منفعلين وحزينين على أشياء قد لا تستحق ذلك..».

ظلت كلمات أمي ترافقني منذ الطفولة، وقد كانت تنهيني عن الصراخ والانهيار أمام أي مشكلة، وتحث على أن أكون ثابتة وعقلانية بعيدًا عن أي مبالغة في رد الفعل، وأصبحت أواجه مشاكلي التي تكبر كلما كبرت، باتزان أندهش أمامه أحيانًا. فلقد هونت كلمات أمي كل ما واجهني، بداية بدرجاتي في المدرسة، وصولًا إلى مشاكلي في العمل، أو أي خيبات عاطفية أو اجتماعية وغيره.

فعندما رسبت في الثانوية العامة، ذلك الحدث الجلل الذي ينهار الطالب وأسرته بسببه، كان رد أمي شافيًا، عندما قالت: «خيرة.. السنة القادمة ستعملين أكثر، وتنجحين بتفوق، لازلت صغيرة والمستقبل أمامك.. ستستمتعين بعطلة الصيف وستبدئين من جديد أكثر قوة وثقة».

وفعلًا رغم أن كلامها استصغر من هول الموقف آنذاك، إلا أنه كان صحيحًا، ولن أبالغ إذا قلت: كانت أفضل سنة دراسية في حياتي، مريحة وسهلة وتكللت بالنجاح.

وعندما شعرت بعدم الرضى على استمرار خطبتي بشخص من الأقارب، وترددت في المواجهة

لكي أطلب الانفصال، وأنا أفكر في تبعات الموضوع بين العائلة والأهل، جاء تعليق أمي بمثابة السحر على روحي التي ابتهجت وهي تقول: أنتِ أهم من كلام الناس، وراحتك دائمًا أولوية، وحتى إن كنت متزوجة وعلى يديك أطفال ولم تكوني مرتاحة، فسنساعدك لكي تطلبي الطلاق لتكوني سعيدة.. تجاهلي ما قيل وسيقال، وانفصلي عن خطيبك لأنك لا تشعرين بالراحة معه، واستمري بكل ثقة.

وعندما كنت أستعد للهجرة، وتتأخر الإجراءات، وتُرفض بعض الأوراق، وأنا أسعى لتحقيق حلم كبير، أتعثر في الوصول له كل يوم. كانت تأتي كلمات أمي لتخفف ذلك الضغط الذي يصيبني بالإحباط، لتقول: «سينتهي كل شيء مهما طال وقت تحضيره، وكل لحظة تأخير هي لصالحك، فهناك شر تتخطيه وستصلين إلى مبتغاك وستسافرين». وكنت أستغرب من ثقتها التي كانت صائبة، ومن ردودها أمام من يقول: كيف ستسمحين لابنتك بالهجرة؟ ولماذا لا تقنعيها بالبقاء والعمل في بلدها؟ كانت ترفض هذه الأسئلة، لأنها تؤمن بأن لدي حلمًا، وأسعى وراءه ولن تكسره بمعارضتها. وقد نشأت على هذا التحفيز، وعلى تجاوز الأمور وتقبلها، مهما كانت كبيرة في نظري. وقد تعلمت أن أستقبل كل شيء بثبات كبير. لم أصرخ يومًا أمام أي موقف، ولم أرتبك، بل كنت دائمًا سباقة ومبادرة لمواجهة الأشياء بالعقل والتفكير. وأحاول حل الأمور بعيدًا عن التوتر، وهذا ما ساعدني على تخطي الكثير من الأمور في حياتي، وتجاوزت به مواقف كنت أظن أنها صعبة، ولكن بجملة واحدة من أمي أستصغرها وأستمر.

أتذكر يومًا في سكن الطالبات الجامعي عندما سقطت إحدى صديقاتنا مغشيًّا عليها، وكيف كان رد فعل المحيطات بها من صراخ وبكاء، دون أي فعل حقيقي مُتَّزن، مما جعلني أتدخل لأنهرهن واطلب منهن الهدوء، وعدم الانفعال بهذه الطريقة المربكة. فالموقف لا يتطلب إلا قليلًا من المرونة والقدرة على المواجهة، بمحاولة مساعدتها على استرجاع وعيها، أو الاستعانة بأشخاص مختصين كالاتصال بالإسعاف، أما البكاء والصراخ فلن ينقذ الموقف، أفعل هذا واتذكر ما تقوله لي أمي: «كوني ثابتة في كل موقف يواجهك، لا ترتبكي فالمصاعب تحتاج إلى الثبات بعقل لمواجهتها».

وكان صديقاتي يسألنني باستغراب: هل تحكين كل شيء لأمك؟ وكيف لا، وأنا أجد في أجوبتها دواء لكل مشاكلي، بفضلها أتخطى كل شيء مهما كان صعبًا، بل أصبحت أتوقع رد فعلها أمام كل مصيبة أواجهها لكي أخفف عن نفسي. وكنت أستغرب عندما أرى زملائي ينهارون خوفًا من عقاب الأهل، أو أرى صديقاتي يتألمن وحيدات، ويخفينا مشاكلهن التي تتفاقم وتكبر وهن يحاولن حلها بصمت وفي سرية لكيلا تعلم بها الأمهات. فنحن بشر معرضون للخطأ في كل وقت، فكيف لأمهات وآباء يعاقبون أبناءهم بالزجر، ولا يحاولون تفهم وضعهم؟

وأتذكر آخر الأمور الصعبة التي واجهتها، كانت عندما تعرَّضت لحادث بسيارتي التي تأخذ جزءًا كبيرًا من راتبي كل شهر لتسديد أقساطها. فبعد الصدمة وصوت الزجاج الذي تهشم فوق رأسي، ومشاهدتي للسيارة وقد تضررت بشكل كبير، وأنا أقف أمامها غير مستوعبة هول ما حدث، وكل ما أفكر فيه: من المتسبب في الحادث؟ أنا أم الطرف الآخر؟ تأميني ليس شاملًا فهل سأتحمل المسئولية؟ كيف ستصلح هذه السيارة؟ ووسط كل تلك الأسئلة والخوف والرعب كنت أرغب في محادثة أمي التي تبعد عني بمسافة ٨ ساعات في الطائرة..

كنت أرغب في محادثتها بأسرع وقت، ليس لتنصحني، أو تقول لي ماذا أفعل، لأنني على دراية

أكبر بالقوانين وما يجب فعله، ولكني كنت أريد أن أحدثها لكي تخفف عني هول الموقف، لكي أسمع كلمة «الحمد لله أنك لم تصابي بأذى»، «أنت أغلى من السيارة»، «خسارتها ستعوض والأهم أنتِ»، كنت وقتها فقط في حاجة إلى تلك الكلمات، وفعلًا بعد تواصلي معها تغير وضعي بشكل كبير جدًّا، بل أصبحت أستوعب ما حصل وراضية تمامًا، بل وسعيدة لأني لم أصب بأذى، ومقتنعة أن كل المشاكل لها حل.

فأمي التي أكلمها لكي أخبرها أني اقترفت فعلًا سيكلفني مبلغًا كبيرًا من المال، وترد علي: «المال يعوض.. لا تقلقي»، فهي لم توبخني يومًا على خطأ بقدر ما سعت لحله ومناقشته. وحتى إذا عارضت شيئًا تعارضه بكل هدوء، وتعطيني فرصة لأراجع نفسي بنفسي. بفضلها أتخطى المشاكل دائمًا، لأنها تقول: «أصعب ما يمكن أن يواجه الإنسان هو الضرر في صحته، أو وفاة شخص مقرب منه.. دون ذلك، ليست مشاكل بل عقبات يمكن تخطيها، وحتى الأهوال نتخطاها مع مرور الوقت، والأهم من ذلك أن نواجه كل شيء بثبات وعقل ونتصرف بهدوء وحكمة».

ولوقت قريب كنت أظن أن الأمهات متشابهات، وأن ما تقوم به أمي تجاهنا هو تصرفات عادية تتحلى بها كل أم، فهن حكيمات وصبورات وقادرات على التحمل. ولكن حصل معي موقف جعلني أعيد النظر في هذا الحكم، وعدت لأرى أمي ربما مختلفة وفريدة من نوعها.

فقد كنت في ضيافة صديقة عمري التي تتحلى بذكاء وقوة أشهد لها بها، ولكنها في نفس الوقت غير متزنة في ردود أفعالها، وتتوتر بسرعة وتنهار أمام أي موقف صعب رغم صلابتها في الأيام العادية. خلال استضافتها لي في بيت عائلتها، وفي وقت متأخر من الليل ونحن غارقان في النوم، استفقت على صوت صراخ يهز كل أرجاء البيت، وكانت لحظة من الذعر، استمرت معي لمدة طويلة وأنا أحاول التخلص من تبعاتها النفسية، لأني فجأة تخيلت أن البيت ينهار أو حدث انفجار أو كارثة شبيهة بذلك.

واكتشفت أن هذا الصراخ الجنوني الذي باغتنا في ساعات الليل المتأخرة هو صوت والدة صديقتي بعد أن دخل زوجها في نوبة هبوط حاد في نسبة السكر في الدم، وكانت تصرخ لتستنجد بابنتها لمساعدتها، وهي بدورها انضمت إلى والدتها بالصراخ والانهيار!

والغريب في الأمر أن العائلة معتادة على تلك النوبات التي تباغت رب الأسرة فجأة، فهذه ليست أول مرة، والأغرب من ذلك أن صديقتي لا تسكن بيت أسرتها، بل هاجرت منذ ٥ سنوات لاستكمال دراستها. مما جعلني أتساءل: كيف كانت تتصرف هذه المرأة من قبل؟ وهل كانت تنهار أمام كل نوبة تصيب زوجها؟ وما الذي كانت تفعله في غياب ابنتها؟ وهل هذا الصراخ غيَّر أي شيء لإنقاذ الزوج؟

وتذكرت موقفًا مشابهًا مر علينا من فترة، في يوم صيفي هادئ كنت قد خلدت لقيلولة في منزلنا، وأنا غارقة في النوم شعرت بيد أمي تحاول إيقاظي بلطف وهدوء، وعندما فتحت عينيَّ طلبت مني أن أتبعها إلى غرفة نومها في هدوء. ولم أستوعب ما يحدث، حتى دخلت إلى الغرفة فوجدت والدي في حالة مرضية مخيفة، لم نشهدها من قبل، وقد داهمته حمة عنيفة لا نعرف سببها، وأمي تقف بثبات تعطيه الماء، وتبحث في الأدوية وتتصل بالطبيب.

للحظة شعرت أن والدي سيفارق الحياة، ولكني كنت صامتة مصدومة أسأل أمي ماذا أفعل؟

وتجيب رغم خوفها الشديد، وبكل هدوء وتطلب مني أن آتيها بالماء، وأبحث عن أدوية معينة. وكانت ساعات عصيبة جدًّا لن أنساها ما حييت، ولن أنسى الهدوء والثبات الذي خيَّم على الموقف، فلم أسمع صراخًا ولم أرَ ارتباكًا، بل تصرفات شجاعة، بعيدة عن التوتر والتهويل.

فهذه الأحداث تؤكد لي باستمرار أن أمي مختلفة، وأن الهدوء والحكمة نعمة لا يمتلكها الجميع. وأن بعض المواقف تطلب من الإنسان أن يكون صلبًا رغم شدتها. وفي نفس السياق، أتذكر جيدًا أن جدي فارق الحياة بين يدي أمي، ورغم صغر سني آنذاك، كانت تحرص على أن أكون حاضرة معها وهي تهتم به في أيامه الأخيرة من المرض، وكانت تقول: «هكذا ستهتمين بي يومًا..».

في اليوم الذي مات جدي فيه، اتصل خالي بأمي صباحًا وأخبرها أن حالة والدها تأخرت، وطلب منها الحضور، فذهبت لتجلس بجواره، وقد كان في غيبوبة استمرت لشهور، وفقد الأطباء الأمل في استفاقته. أمسكت بيديه، وفتحت المصحف وبدأت تقرأ القرآن، وسط هدوء فيه الكثير من الرهبة، ولم تخبر أحدًا بالأمر آنذاك لكيلا يحدث ارتباك، وتتعالى أصوات البكاء والصراخ، وهذا ما كانت ولازالت تكرهه. وكانت تشعر بسكرات الموت تباغته، فتمده بماء زمزم والعسل، وتتلو له الشهادة وتستمر بتلاوة القرآن، إلى أن فارق الحياة في هدوء تام بين يديها. وقد كانت تجربة قاسية جدًّا عليها، ولكنها واجهتها بثباتها المعتاد، بل وعلمتنا كيف نتصرف بحكمة أمام أصعب المواقف في الحياة.

نشأت وأنا متأكدة أن الحكمة تكمن في الثبات، واستصغار المشاكل مهما كانت كبيرة، والابتعاد عن التهويل والانفعال واستبدالهما بقوة المواجهة. كما أن الأقدار مكتوبة علينا، وسنعيشها في كل حال، لهذا يجب أن نتعامل معها باتزان وصلابة. ونحاول البحث عن الجانب المضيء لكل مشكلة، مهما كانت كبيرة، فدائمًا هناك ضوء يختبئ خلفها، حتى إن كان خافتًا، لكنه موجود، تستشعره بحكمتك. وأحاول ألا أستغرق وقتًا طويلًا في الحزن على أي شيء، وأستبدله بالتفكير في الحلول أو البدائل أو حتى طرق جديدة لم ألمحها من قبل.

☆ ☆ ☆

اعمل ما تحب لكي تُخلِص.. هذا ما قاله لي أبي

هل تحب عملك؟ وهل أنت مخلص في أدائه؟ هل شعرت ومن حولك يومًا بسعادة الإنجاز، وفخر التفوق؟ أم أنك مُجبر على ما تقوم به، ولم تجرب يومًا ما تسمعه من الآخرين عن متعة النجاح؟ وهل أنت راضٍ بواقعك العملي، أم تسعى إلى التغيير، أم مستسلم لما يواجهك؟

قد يكون المجال العملي هو الجزء الأهم في عالمنا، ويسلب منا ما يقدر ب. ٦٠٪ أو أكثر من حياتنا، فبحسبة بسيطة لأيام وساعات العمل، ستلاحظ أنك تهب جزءًا مهمًّا من حياتك لأجل الكسب، وقد يصبح الوضع جحيمًا إذا كنت تمارس أي مهنة وأنت غير راضٍ عنها، أو لا تحبها!

ويبدأ الجحيم منذ فترة الدراسة عندما تجبرك الظروف على سلك مسار لا يشبهك، لتخوض غمار المعاناة التي لا تنتهي. وما يجهله الكثيرون، وأثبتته دراسات علمية، أن تركيبة عقل الإنسان تختلف من شخص لآخر، ونشاط الدماغ يختلف بين البشر، فهناك أشخاص يميلون للتعلم والعمل عن طريق الأرقام، فتناسبهم الدراسات العلمية، وآخرون يميلون للكلمات والتعبير اللغوي فيناسبهم الأدب، والبعض يميل للرسم وغيره.. كلها اختلافات مصدرها تركيبة الدماغ التي تدفعنا لتفضيل دراسة أو وظيفة دون الأخرى.

وهذا المفهوم علمي ومثبت، تحت بند يسمى «الذكاءات المتعددة» (يطول شرحه علميًّا، ولكن هناك مراجع ومقالات كثيرة تسلط عليه الضوء مع التفاصيل)، لذا فحبك لدراسة أو وظيفة معينة غالبًا يكون خارج نطاق إرادتك، وينشأ مع تكوينك. إذًا لا تحاول أن تفرض أو تسمح لأي ظرف أن يفرض عليك تخصصًا لا يتقبله عقلك، حتى إن كان مصدر دخل مغريًا، لأنك قد لا تستمر، وقد تواجه التعاسة اليومية والضيق والإحباط، فتنسى متعة الماديات التي كنت تسعى خلفها.

وعلى النقيض تمامًا، هناك ما يسمى بمتعة العمل والإنجاز، مهما كان العمل بسيطًا أو حتى دخله في حدود المعقول، ولكنك تنجزه برضًى وحبٍّ. قد يرى البعض أن حديثي فيه كثير من المثالية، ولا يحاكي الواقع الذي أصبحت فيه الماديات تفرض نفسها فوق أي اعتبارات أخرى. ولكني أؤمن دائمًا بالتجربة، لأنها هي السبيل الأصح لتصديق أي نظرية.

خض أي تجربة، أو تأمل التجارب من حولك، بين شخص يحب عمله ويبدع فيه رغم بساطته، وشخص يكره وظيفته، ويعمل فيها مغصوبًا على الإنجاز، ودخله مرتفع. ضع مقارنة بين الشخصين، ولاحظ مدى رضاهما، ومدى السلبية والإيجابية في حديثهما، وإن استطعت أن تحسب عدد المرات التي يبتسم ويضحك فيها كل منهما، فستتوصل للحقيقة بنفسك.

حب العمل، يقودك نحو الإخلاص، هذا الأخير الذي لا يقدر بثمن، لأنه وبكل بساطة يقود إلى النجاح. فكلي يقين أن المخلصين في أي مجال، لا يعرفون الفشل، حتى وإن اضطروا لبذل جهد مضاعف أحيانًا، إلا أنهم يجنون ثمار ما أخلصوا في إنجازه. فعندما يقول لك أحد: «حب وأخلص لتسعد»، فهو لا يحدثك عن قواعد روحية أو فلسفية، بل يعطيك واحدًا من أهم مفاتيح النجاح.

لذا، لا تلم أي شخص قرر فجأة التخلي عن عمله لأجل ما يحبه، أو لأجل بداية جديدة في مكان آخر، أو ثار على ما يقوم به وهرب بحثًا عما يشبع رغبته في الإبداع، أو أي شخص اختار مسارًا

عمليًّا بسيطًا، رغم الفرص المهمة التي قُدِمت له..

نشأت في أسرة تقدر العِلم والثقافة، فوالدي امتهن التدريس، ذلك العمل السهل الممتنع الذي مارسه بكل حبٍّ. رغم أن درجاته العالية وتفوقه الدراسي كانا قادرين على جعله يختار تخصصًا أصعب من ذلك، ويدر عليه دخلًا أكبر. ولكنه كان يقول دائمًا: أنا امتهنت التدريس عن حب واقتناع، فقد مارسته منذ صغري مع الأهل والأقارب، وشعرت بمتعة إيصال المعلومة وتلقينها، ولم أندم يومًا على هذا القرار».

وبما أن والدي امتهن عمله عن اقتناع، فلم يجبرنا يومًا أنا وشقيقي على أي تخصص دراسي أو عملي، بل كانت لنا حرية الاختيار المطلقة بدعوى السعي وراء ما نحبه ونستطيع الاستمرار فيه. وعن نفسي كنت متخبطة جدًّا في توجهي الدراسي، أحيانًا اقرر دراسة الفن وأحيانًا أدرس الاقتصاد وفجأة أدرس الإعلام وبعدها علم الاجتماع، ورغم كل ذلك لم أسمع يومًا كلمة تعارض هذا التخبط من والدي، بل كان يقول: «ابحثي عما يرضيك لتعملي في مجال تحبينه».

فوالدي سيظل بالنسبة لي يمثل كلمة «الإخلاص في العمل» بكل ما تحمله من معنى، فسِجل غيابه السنوي كمثال يكاد يكون خاليًا في عمله. ولن أنسى نشاطه الصباحي اليومي وهو يستعد للذهاب إلى العمل، كما أنني لن أنسى أيام الأمطار وموجات البرد القوية التي يواجه فيها نوبات الربو الحادة التي تداهمه كل صباح، ومع ذلك يصر على الذهاب للمدرسة، رغم اعتراضنا أحيانًا أن وضعه الصحي لا يسمح بذلك، فكان دائمًا يتحجج بتلك الكلمات: «الطلبة عندهم اختبارات، لن أضيع عليهم الحصص»، أو «يجب ألا أتأخر في المقرر الدراسي».. وغيرها من الحجج التي تصب في مصلحة الطلاب قبل مصلحته!

دائمًا كنا فخورين بمهنة والدي، فقد كانت تمنحنا مكانة خاصة في كل مكان تطأ فيه أقدامنا، فطلبته منتشرين في مختلف الوظائف والمراكز، وعندما يسمعون اسمنا الكامل ويعرفون أننا أبناءه يتسابقون لخدمتنا كنوع من رد الجميل، لذلك المدرس الذي لم أسمع يومًا أحدًا تحدث عنه بسوء، بل كان محل تقدير واحترام بين كل من تعلم على يده أو حتى كان زميلًا له.

أتذكر جيدًا أني كنت أحظى برعاية واهتمام مبالغ فيهما خلال مرحلتي الدراسية، لدرجة أني كنت أشعر بالإحراج بين زملائي أحيانًا. فأغلب المدرسين زملاء والدي، يحرصون على أن أكون متفوقة، ولا يقبلون إلا بذلك، الأمر الذي كان يضعني في ورطة غالبًا.

ولأن كل شخص يحب عمله، يخلص له ويتقن قواعده، فكانت استراتيجية والدي في العمل تقوم على قواعد أساسية، القاعدة الأولى: «لا يملك الجميع ملكة العلم، ولكن ملكة الأخلاق ضرورة وفرض»، كانت هذه القاعدة التي يسمعها الطالب في حصَّته الأولى، وكان والدي يقول: «أنا أُعلم الطلبة مادة ليست بسيطة وهي الحساب (الرياضيات)، ولا يملك الجميع القدرة أو الموهبة لاستيعابها، فأنا أحاول قدر الإمكان مساعدتهم على الفهم، ولا ألقي اللوم على الطالب إذا لم يستطع ذلك، ولكني ألومه إذا كانت أخلاقه غير جيدة أو مشاغبًا». لذلك كان اتخاذ أي إجراء عقاب مع أي طالب مبنيًّا على أخلاقه وتصرفاته داخل الفصل، وليس على مدى استيعابه وتفوقه العلمي.

القاعدة الثانية: «لا تهن الطالب مهما فعل، فالإهانة تخلق لك عدوًّا»، فوالدي شخصية هادئة جدًا، لا تنفعل إلا نادرًا، وكل ردود أفعاله مدروسة وحكيمة دائمًا. وكان يعترض وينتقد كل

مدرس يتعمد إهانة أي طالب، سواء بدعوى عدم استيعابه للدراسة، أو حتى لتصرفاته غير الأخلاقية. لهذا كان يواجه المخالفات، بالعقاب البسيط أو التنبيه الإداري، بعيدًا عن أي نقاشات أو خصام ومشاحنات مع الطلبة.

القاعدة الثالثة: «لا تحمل الطالب فوق طاقته..»، وهذه القاعدة كان يطبقها والدي معنا في البيت قبل طلبته، لم أتذكر يومًا أنه وبخني لأني لم أتفوق أو لم أكن الأولى على الفصل، وهذا ما كان يعانيه أبناء المعلمين باستمرار، فهم يسعون ليكونوا أبناءهم الرقم (١) ويتباهون بهم أمام زملائهم. بل العكس تمامًا والدي كان يقول: «غالبًا الطالب المتوسط في إنجازاته هو القادر على الاستمرارية والنجاح مع الوقت، أما الذي يجهد نفسه من أجل التفوق فيتعب بسرعة ويستسلم». وبالفعل كنت طالبة متوسطة، لا تعاني من أي ضغط، مثل طلبته الذين لا يمارس عليهم إرهاب التفوق، أو يستنقص من مجهودهم إذا لم يكونوا متفوقين.

فقد كان والدي مدرسًا محبوبًا جدًّا بين الطلبة، يصفونه بكونه صارمًا في اتخاذ القرار، ولكنه لا يهين طلبته أبدًا بأي شكل من الأشكال. وكان البعض يقول: رغم أننا لا نحب مادة الرياضيات ولا نفهمها، إلا أن المُدرس يستوعب ذلك ولا يوبخنا ولا يحرجنا بين زملائنا..

قد يرى البعض أن وظيفة التعليم بسيطة، ولكني أكاد أجزم أن قواعدها صعبة جدًّا، فمهمة التواصل مع كمٍّ كبير من المراهقين بشكل مستمر ليست سهلة. وأظن أن ما يصيب الشباب من مشاكل نفسية أو إحباطات أو حتى إخفاقات دراسية، تعود بشكل كبير للمدرسين الذين امتهنوا عملهم بدون حب، فقط يؤدون واجبهم العملي، غافلين أي مبادئ إنسانية أو أخلاقية تحتمها عليهم المهنة.

كان والدي يشعر بحزن شديد عندما يرى أحد الشباب وقد قرر امتهان التدريس لأنه لم يجد أي تخصص آخر، فقط من أجل كسب مال الوظيفة. وكان يرى أن هؤلاء المحبطين الذين يتوجهون للتدريس سيسهمون في نشأة جيل محبط يشبههم، يدرسون مغصوبين ويعملون بدون حب ويعيشون بدون إنجازات، وحياتهم خالية من سعادة التفوق.

فحب التخصص والإخلاص له قادر على جعل الشخص مبدعًا ومميزًا ومتفوقًا، بل وقادرًا على خلق منهج مبتكر يسير عليه، ويسلمه لأجيال أخرى تأتي بعده، وهذه القاعدة يمكن تطبيقها على كل الوظائف.

فكل شخص يعمل بحب وإخلاص في أي وظيفة يجني ثمار ذلك بطريقة أو بأخرى، بين من يكسب المال، أو يحصد الجوائز، أو يحصل على ترقيات، أو تشكره الإدارة، أو أشياء أخرى كثيرة.. ولكن ثمار نجاح والدي كانت - ولازالت - الرضى بالدرجة الأولى، والسيرة الطيبة بين طلابه الذين أكملوا مشوارهم الدراسي ولم ينسوه يومًا، وهو يرى في هذا أهم إنجاز يمكن تحقيقه، ولا يعرف الإنسان قدره إلا مع مرور السنوات، وكسب الخبرات وكثير من النضج.

ومهنة التدريس عن حب في عائلتي متوارثة، فأعمامي كذلك يمتهنونها ويخلصون في أدائها، وكنت أستمتع بجلسات والدي معهم وهم يتحدثون عن العِلم ومستوى الطلبة ومشاكلهم والقرارات الوزارية التي تخصهم. غالبًا ما يكون حديثًا شيقًا لا يخلو من حماس يدل على مدى إخلاصهم لما يقومون به، ومدى حرصهم على الاستمرارية والنجاح.

وأعترف أني أخذت من أبي صفة الإخلاص في العمل، أو ربما لأني امتهنت تخصصًا أحبه، لذلك

نجحت فيه، ولكن عندما أجهد نفسي أحيانًا، وأتعب لأنجز متطلبات وظيفتي، أتذكر والدي الذي كان يستيقظ قبل شروق الشمس ليستعد للعمل رغم ظروفه الصحية، أو حتى يتأخر ليلًا مع طلبته استعدادًا للاختبارات، بالإضافة إلى مسئوليتي أنا وشقيقي، فقد كنا ننتظر عودته ليساعدنا في حل الواجبات وفهم الدروس.

فإخلاصه في العمل صفة ورثناها أنا وشقيقي نفتخر بها دائمًا حتى وإن أرهقتنا أحيانًا، ولكن نشوة النجاح والتفوق لا يضاهيها أي إحساس آخر، وأي شخص لا يعمل في مجال يحبه، ولا يخلص فيما يقوم به، فلقد افتقد واحدة من أهم النعم الكونية، وعليه مراجعة نفسه في أقرب فرصة ممكنة ليبدأ من جديد، ويخطوا بحثًا عن سعادة النجاح الوظيفي.

☆ ☆ ☆

دودة الكتب حرامية

من يستحق الفرصة الثانية؟

كيف تستقبل من غاب طويلًا وعاد يحمل بين يديه الخيبات والندم؟ هل تسامح؟ هل تعود؟ هل تعطي الثقة من جديد لمن جرح قلبك؟ هل تخاف من تكرار التجربة والفشل؟ هل النادمون يتعلمون من إخفاقاتهم؟

طبائع البشر مختلفة، ولا توجد قاعدة توحدها، هي نتاج لتجارب الحياة، وظروف النشأة. ولكن المواقف قد تتشابه أحيانًا، فالحب والصدمة والفراق ثم الندم، مشاعر قد نعيشها، وتواجهنا دون سابق إنذار، ونقف في حيرة أمامها، خاصة عندما تتكرر فنكرر معها أخطاءنا، ولا نتعلم، وقد نخفق في التحكم بردود أفعالنا..

صدمات الفراق موجعة، خاصة إذا كنت أنت الطرف المغدور به، عندما تتفاجأ باختيارات الشريك الجديدة. فقد يفضل الابتعاد أو الرحيل لأسباب قد تكون غير مقنعة أو حتى مقنعة، في كلتا الحالتين أنت مكسور الخاطر.

وتدخل في دوامة الألم، تنتابك مشاعر سيئة، ليس حزنًا على من اختار الرحيل فقط، بل شفقة على نفسك، وحسرة على قلبك المكسور، وأسف على أيام ضاعت في الأمل، وأيام ستضيع من أجل النسيان، والتخلص من عادات الحب المؤلمة.

غالبًا ما يسبب الفراق نوعًا من عدم الثقة بالنفس، والتوتر والانطوائية، وكلها أعراض تتحكم فيها الذكريات بالدرجة الأولى، تلك الأخيرة التي تشعرك بالتعاسة في كل وقت. أتساءل دائمًا كيف للذاكرة تلك السلطة القوية في التحكم بالبشر؟ هي الوحيدة التي تطير بهم إلى السماء السابعة، أو تنزلهم إلى أعمق أرض دون رحمة..

وباختصار لن تتخلص من الذكريات إلا بذكريات جديدة، ولكن هذا لا يعني أن تبني على أنقاض علاقتك المهشمة علاقة جديدة، بالعكس هذا خطأ فادح لا يجب أن ترتكبه. بل استبدال ذكرياتك العاطفية بذكريات سعيدة بعيدة عن العلاقات، ذكريات مع العائلة ومع الأصدقاء، إنجازات عملية، ونجاح. ويفضل تغيير العادات التي جمعتك بمن رحلوا، ليس هناك أجمل من متعة التجديد والتغيير، وبداية الصفحات الجديدة في الحياة.

والوجه المشرق للفراق هو المساحة التي تنشأ لتفصلك عمن تعلقت بهم، وتهبك فرصة لإعادة تقييم علاقتك التي قد تكتشف أنك كنت مُغيَّبا خلالها، أو حتى كنت مظلومًا أو محرومًا أو غير سعيد، ولكنك كنت تستمر بحكم التعود والخوف من اتخاذ القرار. فمهما كان الفراق صعبًا، إلا أنه يمنحك فرصة لإعادة النظر في كل جوانب حياتك وتطويرها. فقد كنت تقتسم ما هو لك من مشاعر واهتمام وطاقة ومجهود مع شخص اختار أن يرحل، لكي تهب كل ما تملكه لنفسك اليوم.

وغالبًا يعيد كل شخص انفصل عن شريكه النظر في حياته لينطلق من جديد، فيحقق النجاح بل ويتفوق وقد يلفت له أنظار واهتمام الكثيرين. والغريب فعلًا أنه أحيانًا بعد رحلة شقاء النسيان ومرحلة استرجاع الذات وبنائها وتطويرها من جديد، قد نُصدم بعودة من رحلوا طوعًا، بتقرب مفاجئ يدعون فيه الاشتياق، أو الندم، أو الانكسار، أو أي حجة تبرر موقفهم، وتعطيهم الضوء الأخضر للتقرب من جديد.

هنا يأتي دور رد الفعل الصائب، فيجب ألا تفكر في الانتقام لأن الشر دائمًا قد يعود إلى صاحبه بصورة متجددة، ولا تفكر في الغفران المتسرع لأنه قد يضرك، ولا تفكر بالتجديد على نحو آخر، أي تحويل العلاقة إلى صداقة مثلًا، هنا سيتم استغلال مشاعرك بالشكل الخطأ وستكرر رحلة العذاب من جديد، بل يجب أن تلتزم بالحكمة في رد الفعل، والتي تبدأ بالصمت والتفكير وطرح تساؤلات كثيرة..

لماذا عادوا إلينا؟ هل يحتاجون إلى وجودنا معهم فعلًا؟ أم شكلنا الجديد الناجح أغراهم بالعودة ويريدون خوض تجربة مختلفة؟ هل شعرنا بالراحة عندما افترقنا عنهم؟ أم أن تواجدهم كان مهمًّا؟ هل نحن قادرون على الاستمرار بدونهم؟ هل كنا نتقبلهم بعيوبهم الكاملة؟ وهل سيتقبلوننا بعيوبنا الكاملة؟ هل حججهم الجديدة مقنعة؟ هل لهم أي مواقف سابقة تشفع لهم ما قاموا به؟ هل يستحقون عودتنا أم أننا نستحق الأفضل؟ هل نحن مستعدون أن نخاطر وقد نعود لنعاني من نفس تجربة الفراق مرة أخرى؟

فيجب مواجهة النفس ومصارحتها بكل حيادية، والإجابة عن الأسئلة المطروحة بكل صراحة وحتى إن انتابتها أجوبة قاسية، فتلك المساحة التي وهبت لكم بفضل الفراق منحتكم القوة لتقييم ما كنتم تمرون به. كما أن الغفران يتطلب أن تحمل في قلبك بعضًا من الحنين للشخص العائد، حنينًا غير مبني على العواطف بل على العقل، أي أشياء منطقية قد تميز تواجده معك، كمثال: ألا تقول أكون سعيدًا وهو بجانبي، فالسعادة قد تجدها في أشياء أخرى كثيرة، بل مثلًا هذا الشخص يحميني وأكون مطمئنًّا بجانبه، أو يساعدني دائمًا، أو ينصفني أمام الجميع أو يهتم بي رغم انشغاله وغيرها من المواقف التي تعزز رصيده عندك، مواقف عملية وليست وهمية أو عاطفية.

قد تبدأ من جديد، كشخص آخر حذر وواثق من نفسه، علمته الحياة وأصبح أكثر خبرة، قد تعود إذا أثبت لك من هجرك سابقًا أنه يستحق فعلًا ذلك، قد تصفح إذا شعرت أنك في حاجة لهذا الشريك، وقد تكون شراكتكما ناجحة هذه المرة. وإذا اجتمعت كل هذه الشروط، فأعطي فرصة ثانية، ولكن قبل أن تمنح تلك الفرصة تأكد أن حياتك بها متسع من الوقت والجهد لكي تخوض التجربة، وتختبرها وتحاول إنجاحها.

فعندما فكرت في سرد قصَّة بخصوص هذا الموضوع وجدت في جعبتي الكثير من الحكايات التي عايشتها وكنت شاهدة عليها، ولكنها متناقضة ومتضاربة ولا تجمعها فكرة ولا قاعدة واحدة. فكما سبق وذكرت البشر تختلف طباعهم، وردود أفعالهم رغم تشابه المواقف..

فنادية كمثال، عاشت قصة حب مع نبيل وهي في مرحلة دراستها الثانوية، وقد كانت مراهقة وكان حبها الأول، ذلك الحب الذي يبقى عالقًا في الذهن مهما كبرت أو خضت من تجارب في الحياة لأنك تختبر خلاله مشاعر عظيمة للمرة الأولى. ونادية كانت مخلصة، وبريئة في حبها، ووصلت لدرجة كبيرة من التعلق، والاهتمام المفرط والتقرب، الذي غالبًا ما يضر بالعلاقة أكثر مما يخدمها.

أما نبيل فقد كان يكبرها بسنوات قليلة، وبالفعل كان يحبها ويقدرها ويمنحها مكانة خاصة جدًّا في حياته، ولكنه كأي شاب مراهق، ينظر للحياة بنوع من الطيش وحب التجارب الجديدة. وكان يتعامل مع علاقته بنادية بتهاون أحيانًا، لأنه في سن لا يسمح له بالالتزام، وخاصة بعدما قرر الذهاب إلى أوروبا لإكمال دراسته، فمسار العلاقة تغير تمامًا مع البعد، رغم أنها كانت تحاول أن

تبقى قريبة منه، إلا أن حياته الجديدة خطفته بشكل كامل.

لم أنس يومًا عندما هاتفتني وهي تحكي ما حدث معها وتبكي بحرقة، فبعد أن وعدها والدها بالسفر إلى أوروبا برحلة مع صديقاتها في حال حصلت على مجموع عالٍ في الثانوية العامة، وكانت تدرس باستماتة من أجل ذلك، وليس حبًّا في أوروبا بل شوقًا لنبيل الذي لم تره منذ فترة طويلة، وتحلم بأن تقضي معه أيامًا جميلة في ربوع لندن، وحققت مرادها بالنجاح، وسافرت وكلها شوق.. وعندما حادثت نبيل على هاتفه، تحجج بانشغاله ولم يرغب في لقائها، لتصاب بصدمة وخيبة أمل هشمت ما بداخلها من حب، وجعلتها تتخذ قرار الانفصال إلى الأبد.

قررت نادية أن تقاطع نبيل، ولم تعد تتواصل معه أو ترد على مكالماته، رغم أن الصدف كانت تجمعهما أحيانًا بحكم الصداقات المشتركة، ولكنها كانت تتجنبه باستمرار. وقد اختارت التركيز على مسارها الدراسي الجديد، وبالفعل تطورت وتفوقت، ونجحت فيما تسعى إليه، بعد أن أغلقت صفحة علاقة أصبحت تراها من الماضي. وخاضت تجارب كثيرة في حياتها، لتكسب بفضلها الخبرة والنضج، وبعد تخرجها من الجامعة، وعملها بمنصب مهم في إحدى الشركات، تقرب منها مديرها ليطلبها للزواج.

كانت نادية مترددة في زواجها من مديرها، فلقد كان شخصًا جيدًا يحمل كل مواصفات العريس المميز، ولكنها لم تكن تشعر تجاهه بأي مشاعر حب، وفي نفس الوقت كانت تفكر في قبول العرض لأنه مناسب. وفي يوم بعد الموافقة على خطبة مديرها، جاءها اتصال من رقم مجهول اكتشفت فيما بعد أنه من نبيل، حبيب المراهقة الذي طلب أن يقابلها وتعطيه فرصة ليحدثها في موضوع مهم.

فلم تستطع نادية رفض طلب نبيل لما بينهما من أيام جميلة، وحنين غامض يعود ليجذبها لهذا الشخص، فقابلته لتتفاجأ به منهارًا أمامها بعد أن سمع بخبر خطبتها، وهو يعبر عن أسفه ومدى طيشه لما فعله معها، ويؤكد لها أنه لم يعرف معنى للحب إلا بجانبها، كما أنه تحدث عن ظروف كثيرة مر بها بعد فراقهما، مشاكل جعلته يبتعد وينشغل ولكنه لم ينسها يومًا، وحتى إن كان مراهقًا أثناء علاقتهما، إلا أن مشاعره تجاهها كانت ناضجة جدًّا كما ادعى.

كان الموقف صعبًا للغاية بالنسبة لنادية التي أصبحت حائرة بين شخصين وقرارين، وعقل وقلب. فعن نفسي لم أكن متوقعة ردة فعلها، رغم أنها صديقتي المقربة، وكنت أسألها بفضول وأنا أرغب أن أسمع القرار، مع التعليل الكامل لسببه، إلى أن فاجأتني بعد أيام بقرارها وهي تقول:

«سأعود لنبيل، فهو نصفي الآخر الذي افتقدته ولم أجد له شبيه يومًا. إنه يشبهني في كل شيء، كان يحتويني رغم طفولتي وجنوني ومراهقتي، وكان ينظر لي بشغف لم أره في عيون أي شخص بعده. لم يبخل عليَّ يومًا بمساعدة، وكان يساندني في كل موقف.. ولقد غفرت له البعد المفاجئ، لأنني أحمل بقلبي وعقلي مواقف تشفع له خطأه، فمعه فقط أشعر بأني على طبيعتي ولا أحتاج أي إضافات، ولن أتمنى شريكًا غيره..».

وبالفعل.. ارتبطت نادية بنبيل، وكان زواجهما الذي قارب الآن على إتمامه سنته العاشرة موفقًا، مليئًا بالحب والتفاهم والانسجام، فالغفران كان اختيارًا موفقًا لم تندم عليه نادية يومًا..

وفي الجانب الآخر، هناك «جميلة» الزوجة المخلصة المطيعة التي تعيش حياة زوجية تبدو سعيدة ومستقرة، ولكن بها لمسة من الغموض أساسها الاختلاف، فجميلة امرأة محافظة جدًّا،

وابنة لعائلة متدينة، وقد أخلصت في عملها كطبيبة، وتهب كل وقتها للعمل وأولادها. بينما زوجها حسن رجل محافظ ظاهريًّا، ذو نفوذ كبير، ولكنه يحمل جانبًا خفيًّا لا يعلمه الجميع، وهو حب السهر والسمر، والسفر المتكرر مع الأصدقاء وغيره.

وكانت جميلة هي الوحيدة التي تعلم عن هذا الجانب في زوجها، بعد أن رفضت الانسياق ومرافقته لحفلاته وسهراته، بحجة أنها لم تنشأ في هذه الأجواء ولا تشبهها، وقررت أن تتكتم أمام عائلتها وعائلته عن الموضوع، ولم تشتكِ يومًا منه. وحتى إن عاد مخمورًا في آخر الليل أو اختفى لأيام دون أن تعرف أين ذهب، بل كانت دائمًا تردد: «الله يصلح حاله»، وتحرص على تربية أبنائها، واستقرار أسرتها بعيدًا عن المشاكل.

وفي يوم من الأيام، حدث ما لم يكن متوقعًا ليجعل الزوجة الصامتة تكسر صمتها وتنفجر، بعد أن قصدتها إحدى النساء مدعية أنها صديقة زوجها، وأنها حامل منه في ابنه الذي لا يريد الاعتراف به. فقررت جميلة أن تتصرف بحكمة بعد أن واجهت زوجها وطلبت منه الزواج بتلك المرأة والاعتراف بابنه. ثم قصدت بيت أهلها للمرة الأولى منذ أن تزوجت من سنوات، وحكت ما في جعبتها من حكايات كانت تخفيها عن عائلتها، وطلبت الطلاق.

دخل حسن في دوامة عدم القدرة على نسيان جميلة المرأة التي تحملته بكل عيوبه، وفراقها الذي كاد أن يودي به إلى الجنون، ورد فعلها الذي جعل ضميره يعتصر ألمًا، فبدأ يطرق الأبواب ويتذلل ويساوم كل من يعرفه من أجل عودتها. وقد أصبح حديث الأهالي والأسر، لما فعله وقدمه من أجلها فقط لترضى عنه من جديد ويستمر معها. وتم تناقل قصص كثيرة حول تلك المحاولات التي قام بها، المادية منها والمعنوية، مما جعل عائلة جميلة تشعر بالإحراج، لأن الناس بدءوا يتهمون ابنتهم بالقسوة لعدم قبولها بكل ما يفعله هذا الرجل المسكين لتعود له.

وفعلًا إلحاح حسن أخجل جميلة، وخوفها من فكرة تربية أبنائها دون والدهم كانت تؤرقها، فسامحت وعادت لتبدأ من جديد.. ولكن ما لا يعرفه الجميع أن جرح جميلة كان عميقًا جدًّا، لم يتعافَ وبقيت آثاره واضحة مهما حاولت التكتم عنها، ورغم محاولة حسن أن يكون شخصًا جديدًا إلا أن طباعه تغلبه أحيانًا ويخطئ ثم يعود ليعتذر، وتعود جميلة لتسامح وتتنازل، واستمرت حياتهما بكثير من الأخطاء وكثير من التنازلات..

الغفران ليس دائمًا حلًّا، وما يُكسر لا يُصلح أحيانًا، لهذا الفرصة الثانية لا يستحقها الجميع، فقط من يثبت أنه جدير بها، بأفعاله وليس بأقواله.

☆ ☆ ☆

الكبار كُثر.. والناضجون قلَّة في هذا العالم!

هل أصبحت شخصًا ناضجًا؟ وكيف وصلت لذلك؟ هل كان طريقك شاقًّا أم بسيطًا؟ وهل للنضج علاقة بالسن، أم فقط الخبرات الحياتية تتحكم فيه؟ هل هناك أشخاص يصلون لهذه المرحلة قبل غيرهم، ولماذا؟ وهل هناك أشخاص لا يصلون حتى وإن تقدم بهم العمر؟

أظن أن النضج مرحلة غير مرتبطة بالعمر، ولكن تجمعها صلة وطيدة بالتجارب. تلك الأخيرة هي المسئولة بشكل مباشر على مدى تقبلك للحياة، بل وحتى زهدك فيها. وقدرتك على تحمل المسئولية، ومواجهة الصعب قبل السهل، والمر قبل الحلو، والمعقد قبل البسيط..

فأحيانًا تلتقي بأشخاص تظن أنهم ناضجون بحكم سنهم، ولكنك تكتشف مع الوقت أنهم أطفال في أجساد كبيرة، ينهارون أمام أول مشكلة، ويهربون عند أي موقف يتسم بالجدية، ويختفون عند مطالبتهم بتحمل المسئولية. فالحقيقة الواضحة، أن الكبار كثر، والناضجون قلَّة في هذا العالم.

تصبح ناضجًا عندما ترى تلك المشاكل التي واجهتك سابقًا بسيطة، وعندما تواجه كل جديد بحكمة بعيدة عن التهور، وتتشبث بحديث العقل غالبًا، وتُحرك المشاعر عندما يحتاج الأمر لذلك فقط. تمشي بخطوات ثابتة، لا يهزها أيًّا كان، ولا ينجح المتربص على التشكيك فيها، لأنك تملك ما يكفي من الثقة التي منحتك إياها التجارب، ودروس الحياة.

ولكن الناضج كذلك له معاناة من نوع خاص، لا يفهمها الجميع، فقد يصل إلى مرحلة يصعب إرضاؤه فيها، وقد يفضل الصمت بدل خوض النقاشات، وينعزل ليغوص في أعماق ذاته، وقد يبدأ في تفضيل الخلوة لأنها تمكنه من التأمل. فيبدأ البعض بإلقاء الأحكام عليه، وانتقاد تصرفاته، ولا يعلمون أنه قد وصل إلى مرحلة من الزهد في الأشياء، يسعى خلالها لراحته النفسية بعيدًا عن ضجيج العالم.

فالناضج هو من توصل إلى حقيقة مفادها أن الحياة بمثابة لعبة ذكاء، إذا أتقنت ممارستها ستصل للرضى، ويتلخص سر اللعبة في «عدم الركض خلف أشياء قد لا تكون لك»، والوصول إلى القدرة على تطبيق هذه الفكرة، قد يتطلب الكثير من الوقت لأي شخص ليستوعبه ويعمل به، بل قد لا ينجح في ذلك طوال حياته. فيعيش دائمًا مكسور الخاطر، ساعيًا وراء أشياء أو أشخاص لا يدركهم، والخطأ الذي يرتكبه أنه لا يعيد النظر فيما يقوم به في لحظة مصارحة ذاتية.

والأشخاص الذين يسعون وراء أشياء لا يدركونها، ولا يفكرون في تغيير مسار السعي والبحث عن الأفضل، يتقمصون دور الضحية، وهذا أخطر ما قد يقترفه الإنسان في حق نفسه. فالشعور الدائم بالظلم والأسى والتعاسة، لأنه لم يدرك ما يريده، يحوله إلى شخص سلبي، يتحاشه الناس وتتحاشاه الفرص. فكن على يقين تام أن دور الضحية وكثرة الامتعاض لن يهبانك شفقة أحد، أو عطفًا أو حتى فرصة، هما فقط يؤذيانك ويؤذيان من حولك.

قد تختلف القدرة على إعطاء الشفقة والمواساة من شخص لآخر، ولكنك إذا أمعنت في الموضوع، وتذكرت أشخاصًا مرُّوا في حياتك حمَّلوك همومهم واشتكوا لك ظروفهم، وحتى إن حاولت بدورك جاهدًا مساعدتهم أو مواساتهم قدر المستطاع، فبعد فترة قصيرة نسيت الأمر

ومضيت في حياتك بشكل طبيعي، لأنها وببساطة مشكلتهم، وليس مشكلتك، هم من تأذوا بها وليس أنت، وهذا طبع بشري عادي جدًّا. لهذا قبل أن تحمل همومك لأي شخص، تذكر أنه سيمضي ويستمر في حياته، مهما كان مقربًا منك.

هذا ما قد يجعلك تعيد النظر في حياتك إذا كنت تتقمص دور الضحية باستمرار، وتأكد أن هذا الدور لن يهبك أي مميزات. أنت في حاجة لوقفة مع الذات ومصارحتها، والبحث عن أصل الخلل، والابتعاد عن السعي خلف أشياء ليست لك، مهما كنت تظن العكس. ففي كل الأحوال الحياة مستمرة، وأنت الخاسر الوحيد في السعي الخطأ، والآخرون مهما قدموا لك من عطف ومواساة فهم لن يستمروا في ذلك وسيكملون حياتهم ويواجهون مشاكلهم.

لهذا أرى أن الناضج هو الشخص الذي تصالح مع واقعه حتى وإن كان فيه نقص أو عيوب، واستمر ليعيش راضيًا وساعيًا إلى الأحسن، بدون تذمر، وتعلم أن يتكيف مع الأوضاع مهما اختلفت.. وقد أستعين بقصة صديقتين، مختلفتين في الطباع وفي التعامل مع الحياة، أو باختصار إحداهما أدركت مرحلة النضج، والأخرى في حاجة إلى إعادة هيكلة سريعة..

«نسرين» ستكمل ثمانية وثلاثين سنة هذا العام، على قدر عالٍ من الجمال وتعمل في منصب مهم، استطاعت أن تنجح في عملها، ولكنها إلى الآن لم تتوفق في إيجاد نصفها الآخر، ولم تتزوج، ليس رغبة منها في ذلك ولكن لأسباب حتى هي غير قادرة على تحديدها، فباختصار «لم يحصل نصيب». ولكن في نفس الوقت تعيش مع والديها عيشة كريمة، وعملها موفق إلى حد كبير.

ورغم ذلك، إلا أنها فضلت تقمص دور الضحية التي لا يعلم أحد إلى الآن من الجاني عليها، فحديثها لا يخلو من الشكوة والتذمر، في كل شيء وعلى كل شيء. تحيط عالمها بكمية من السلبية التي يمكنك أن تلمحها من مسافة بعيدة لتعيق نفسها بنفسها. فحساباتها على مواقع التواصل، مملوءة بالانتقادات، لكل ما تراه ويمر أمامها، حديثها في الحياة عبارة عن وصلات تذمر متواصلة، حتى زملاؤها في العمل أصبحوا يتحاشون العمل معها، لأن إرضاءها صعب.

أتأمل مرارًا في شخصيتها وأتساءل: ما الذي يجعل الإنسان يلبس ثوب التذمر الدائم، ويأبى خلعه؟ هل كثرة الشكوى تشعره بالارتياح؟ أم تزيل من على عاتقه بعضًا من تأنيب الضمير عندما يرى في عيون الآخرين نوعًا من الشفقة؟ هل الامتعاض الكثير دليل على أن الشخص غير سويٍّ؟ أم أن محيطه فعلًا يدعو إلى ذلك؟ أسئلة كثيرة تتبادر إلى ذهني وأنا ألمح نسرين ومن يشبهها وهم عابسون باستمرار في وجه الناس والحياة.

يقول البعض إن نسرين إنسانة متذمرة باستمرار، بسبب عدم ارتباطها أو زواجها، وهذا ما يشعرها بالإحباط والسخط على العالم، لأنها حتى الآن لم تسلك ذلك المسار الطبيعي الذي يسلكه الإنسان، من ارتباط، وزواج وإنجاب أطفال. وقد يكون هذا السبب مقنعًا نوعًا ما، ولكنه ليس سببًا كافيًا ليُلبس الشخص ثوب حداد مفتوح على أيامه، فالحياة قد تسلبك أشياء وتهبك بدائل أخرى غيرها، ودورك الرئيسي هو الاستمتاع بتلك البدائل، وتقديرها حق قدرها.

قد يتأخر الزواج، ولكن هذا لا يعني الوقوف في حالة إحباط مستمرة، مكتوفي الأيدي ننتظر ذلك الشيء الذي لم يأتِ وقد لا يأتي أبدًا. فسنوات العمر لا تطلب منك إذنًا لتستمر، هي تتحرك وبسرعة، وعليك اللحاق بها بما أوتيت من خيارات، سواء كنت مقتنعًا بتلك الخيارات

أم ترغب في غيرها، لكن الموجود بحوزتك يجب الاستمتاع به، لتنجح في الوصول للأشياء الأخرى. مثلًا، إذا حرمت من الزواج، فاستمتع مع الأهل، واستثمر في حبهم وبرهم، وانجح في العمل وطوِّر من نفسك وقدراتك، استغل مهاراتك وما تملك بانشغال دائم ومستمر، لكيلا تركز على أشياء قدرية ليست بيدك في الأصل، ولست أنت المتحكم في وقوعها.. وتأكد أن القدر سيجبر بخاطرك كلما كنت راضيًا.

وعلى النقيض تمامًا ف. «هاجر» كمثال اختارت أن تلبس ثوب النضج والحكمة منذ صغرها، وكنت أحيانًا أستغرب قوتها وصلابتها أمام الأمور، وفي مواجهة المشاكل وحتى الأشخاص. فقد رأيت فيها مثلًا أعلى مرارًا، من ناحية، لحبها للحياة، وقدرتها على مواجهتها والاستمتاع بها في كل وقت وحين، ومن ناحية أخرى لتفوقها في كل مجال تقبل عليه.

قد تكون مشاكل هاجر أكبر من نسرين بكثير، ولكني لم أشعر بذلك يومًا لأن هذه الأولى تتمتع بكمية من الإيجابية التي تحيط بها نفسها وتتقاسمها مع الآخرين، رغم أنها تعرضت لصدمات عاطفية كثيرة، وتزوجت وانفصلت عن زوجها في أقل من سنة، والأكبر من ذلك أنها تعاني من مرض خطير قد يودي بحياتها في أي وقت دون إنذار مسبق، وكأقل تقدير يمكنه أن يصيبها بالشلل أو العمى في أي وقت..

ولم أشعر ولو لمرة واحدة أن هاجر شخص يعاني من مرض، ومتابع بفحوصات شهرية ومراجعات طبية أسبوعية، وجرعات دواء لا تتوقف، ودوامة من الاستشارات المستمرة معها كنمط حياة، لا تشتكي منه ولا تتحدث عنه وكأنه من البديهيات. بل تركز على دراستها ومن ثم عملها، وحققت تفوقًا يشهد لها به في كل مكان، تعمل وتنجح وتطور من نفسها بشكل مستمر يجعلني أنبهر أحيانًا..

ووسط كل هذا وذاك، هاجر لم تنسَ أن تعيش، فهي تحب الاحتفال والسهر والخروج مع الأصدقاء والتواصل الدائم، تمازح الجميع وتساند الكل، وصوت ضحكتها يملأ كل مكان تحل به. وهذا ما جعلها محبوبة بشكل كبير، بل ويقع في غرامها الكثير من الرجال ويطلبون الزواج منها، رغم حالتها الصحية الحرجة، وحياتها العملية الصعبة والمليئة بالضغوطات، إلا أن شخصيتها الإيجابية المليئة بالأمل جذابة تأسر القلوب.

قد تكون التجارب الحياتية الكثيرة، والصِّعاب التي واجهتها هاجر مع مرضها، من بين الأسباب الرئيسة في نضجها المبكر، فقد توصلت إلى حقيقة، مفادها: أننا يجب أن نقبل على الحياة بحبٍّ لتُقبل هي بدورها علينا، وتعطينا من خيرها، وكل مشكلة نواجهها هي بمثابة ناقوس إنذار يذكرنا أن الأيام مسرعة، وعلينا استغلال ما نملكه أولًا، والاستمتاع به، مع كثير من الرضى.

للحياة حكم غريبة، يجب أن نتمعن فيها باستمرار لنفهمها، فنسرين تعيش في دوامة من التشاؤم والإحباط المستمر والألم الذي تسببه لنفسها؛ لأنها ليست راضية بأي شيء حولها، فقط لأنها لم تحظَ حتى الآن بزوج، أما هاجر التي تسبقها ابتسامتها في كل مكان، تعشق الحياة وتعيش اللحظة، وتعمل وتنجح، رغم أنها تعاني في السر، ولا توصل لأحد معاناتها الدائمة مع المرض!

الفرق بين الشخصيتين وصف واحد، هو: «النضج»، فالإنسان يصل لهذه المرحلة بعد الكثير من التجارب والصدمات، ليعطي للحياة قدرها الصحيح ويستمتع. وفي يدك أن تكون ناضجًا، عندما تبدأ بممارسة الرضى على كل ما يحيط بك.

☆ ☆ ☆

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الإهداء..
تقديم..
«لعلَّه خير».. فكل شيء يحدُث لسبب
شبح الوحدة ليس مؤهلًا ليختار شريكنا
الحكم الأخير.. بيد القدر
عندما ينتصر الصمت..
الحب الصامت.. فرحة مخطوفة!
ملوك المشاعر.. ضحايا بائعي الوهم!
السعادة.. أن تضع لنفسك أولوية
عالم موازٍ.. اختلَّت فيه الموازين
المرأة المستقلة ليست منحلَّة.. ولكن!
من ليس له ماضٍ.. قد يكون له حاضر ومستقبل
أتخطى الصِّعاب.. بحكمة أمي
اعمل ما تحب لكي تُخلِص.. هذا ما قاله لي أبي
من يستحق الفرصة الثانية؟
الكبار كُثر.. والناضجون قلَّة في هذا العالم!

الملاحظات

[←1]

قانون السبب والنتيجة: إن وراء السبب مسببٌ، وأن لكل سبب نتيجة، ولكل نتيجة، سواء كنت تعرفها أم لا، سبب أو أسباب محددة. لا وجود للمصادفة في حياتنا، ويمكنك تحقيق أي شيء تريده في الحياة.

كل ما يجب عليك فعله أولًا أن تقرر ما تريده بالضبط، وتحدد ما فعله الآخرون لتحقيق نفس هذه النتائج، ومن ثم تفعل نفس الأشياء التي فعلوها.

=

[←2]

الفيلم يحكي قصة صراع من أجل البقاء، فهو عن موظف في شركة «فيديكس» تقع طائرته في المحيط، ولكنه ينجو بأعجوبة ليجد نفسه على جزيرة معزولة ويعيش ٣ سنوات وحده.